أنطُولوجيا التَّفاهةِ:
سُؤال " اليَوْمِي" في عصرِ ما بعد الحداثة

د. سامي عبد العال
استاذ مساعد- قسم الفلسفة / جامعة الزقازيق

إصدار أكتوبر لسنة 2017م
شعبة النشر والخدمات المعلوماتية

تقديم:

فلسفياً لا تُلقِي الحياةُ إلينا دائماً بما هو ضروري، وليست معنيَّةً بذلك. لسببٍ مبدئي: أنَّها لا تُفْرق ولا تفْصِل بين الجوهري والعرضي. كلُّ شيءٍ يبدو بما هو في ذاته in itself، حيث يحمل وجوده الفعلي ويتجلى بوضعهِ كما هو. والحياة كذلك لا ترتبط بإمكانية التفكر المصنِّف للأشياء. فلو توقعنا ذلك، لخلعنا عليها ما ليس فيها(خلع صفات إنسانية علي العالم والكائنات anthropomorphism).

ومن ثمَّ يعدُّ التَّافِه the banal – على صعيد الوعي- خاصيةً أخرى لما نحياه، إنّه يُوجد ملتصقاً بأكثر أفعال الإنسان أهميةً. وربما بمكانته يمثل مظهراً حيوياً ضمن أنظمة ثقافية تؤكد نفسها بأغلب الأحوال. حتى أنَّ التغيرات اللافتة للحياة الاقتصادية

وتحول المجتمعات والسياسة والمعرفة تفرز التافه تلقائياً. فالأمور التافهة ليست بعيدةً عنها، بل هي جزءٌ لا يتجزأ من محيطها الفعال.

التفاهة banality ضربٌ من سياسة الضروري تجاه نفسه المتمثل في الشأن الإنساني الغالب. أي أنَّ الأمر التَّافه يعد كذلك، بموجب أنَّ هناك نظاماً يجعله الإفراز(الضروري) لما هو(ضروري). فإنْ لم يكن هناك تافه ما كان ليوجد الضروري ابتداءً. بحيث أنَّ ثمة إرادة عمومية تطرح التفاهة كطرفٍ في إدارة المجالات العامة. وهذا يحدونا للتأكيد أنَّ التَّوافِه تميّز الحقبة ما بعد الحداثية بوصفها واقعاً بالفعل. التَّافه- وإنْ كان غيرَ مدرَّك- لا يقْل خطورةً في نمط العيش عما سواه، ويصعب تصنيفه بسهولةٍ. فالوضع الذي ينتجه يعدُّ وضعاً إجمالياً من صميم ما هو سائد. ونحن الآن نعيش مُناخ العولمة واقتصاديات السياسة والإعلام والهويات الهجينة وتجارة البشر والديكتاتوريات السائلة، التي تكرس ظواهر عابرة للثقافات. ذلك نتيجة سياسات النمط الثقافي الرأسمالي الذي يترك بذوراً في فضاءات العالم وينشر" ثقافة الظهور" كمعنى لخواء الهويةِ واقتلاع الجذور.

تُجسِّد التفاهةُ الظُهور كعملية حاضرةٍ أمام الآخرين، وعندما يكون الولاء للظهور، يخاطب التافِه ما هو سطحي في حياتنا، ويأخذ النظر لوقت ليس بالقصير. إنَّه يستثير فضولنا تجاه ما يفعل عبر وسائط الاعلام وعبر مناسبات السياسة والاجتماع، تلك التي تُشبه الطقوس والشعائر في عالم اليوم. ويستحيل تجاهل دور مشاهد الأحداث الجارية إذ يعتبرها التافهون مزرعتهم الخصبة لترك بذور التفاهة أينما رحلوا.

ليست التفاهة فكرةً، لأنَّها ليست نظرية بقدر ما هي نمط حياة وثقافة، أي تمارس مستويات من الفعل ارتباطاً بالمصالح والانهماك فيما هو عابِر. لأنَّ التافِه قد يكون شخصاً أو فعلاً أو حدثاً أو وضعاً أو ردَّ فعل له الأوصاف نفسها. وهذا ما يجعل كلمة الأنطولوجيا الواردة بالعنوان(أنطولوجيا التفاهة) كلمةً في موضِّعها، من حيث كونِّها بنية عامة وشبكة ممتدة من العلاقات والآليات التي تبرز الظاهرة. فالتفاهة تمثل شيئاً جدِّياً في ظهورها، وتمارس وجودها بكل دأبٍ واستغراقٍ وتجلٍّ. حتى أنَّها تحْمل جينات أزمنة بأكملها بجانب عصرها. ولذلك فهي تحدد رُؤى للحياة والآخر والغاية وتكرس أساليب معينة للتفاعل، وبذات الوقت تكمل التفاهة جوانبها بصور المعطيات(السياسية والفكرية) مثل: المناصب والاعمال التافهة وإدارة الثروات وأنماط التفكير السطحي.

إنَّ صلاحية التفاهة كموضوعٍ فلسفيٍّ أمر أولى بالإشارة، لأنَّها ليست من قبيل المشكلات المجردة، إنما بحكم ارتباطها بظواهر إنسانية يومية تكشف تصوراً عاماً يخص العالم والحياة. مثل: "الحقيقة المسطَّحة"، " قهر التكرار"،" التحول المفاجئ"،

"الإنكار"، "تضخُم الأفكار"،" الخفة العقلية"،" الخطاب الاحتيالي". وهي لو نلاحظ مفاهيم لها طابع كلي مع طغيان ثقافة التسليع والتداول ورواج الأفكار السطحية وتماثل الأشكال والعقول وهيمنة المودات modes والبراندات الفكرية والأيديولوجية ideological brands.

من تلك الزاوية تختلف التفاهة عن أية موضوعات بعناوين فلسفية مثل: العبث والغثيان والاغتراب والشر... في الغالب هذه معطيات فردية سيكولوجية. أمَّا التفاهة، فتضْمُر نسقاً جمعياً وتراكماً من الممارسات. ولا تترك حمولتها بالعراء، إنما تغلفها بتبريرات تخص الفعل والمجتمع، وتحتمي داخلياً بقطف النتائج القريبة وتطرح نسقاً بديلاً من المظاهر الرديفة

(كسمات حياتية مرتبطة بنمط العيش).

إذن وسط مظاهر التفاهة التي تكاد تلتهم جوانب حياتنا المعاصرة، هل تعطي التفاهة مضموناً فلسفياً؟ وإذا كان الأمر كذلك، فماذا عن حدودها؟ أهي صورةٌ أم نمط عيشٍ يميز أُناساً دون سواهم؟ لماذا يجد ما هو تافِه رواجاً اجتماعياً عبر إفرازات العولمة واقتصاديات الاستهلاك وجماهيرية السوق الافتراضي؟ هل ثمة شعوب جادةٌ بينما تُوجد شعوب أقل من ذلك؟ وهل يصحُ وصف كيان جمعي بصفةٍ عامةٍ لا معايير لها؟ هل تنسحب التفاهةُ على أفراد كفعلٍ إنسانيٍ أم على بعض الأمور والأحداث؟ هل تأتي عرضاً أم سمةً جوهريةً لها طابع الفعل الإنساني ذاته؟

الأسئلة تستحقُ اهتماماً فلسفياً من نوعٍ خاصٍ. على أثره تظهر أبعادُ الحياة الراهنة وإدارتها لدى الكائنات الإنسانية. والأسئلة فرصةً للتفلسف بجوانبه التي تتناول الثانوي والهامشي لمعرفة حقيقة التفاهة. ولِمَ لا ... فقد طغت أشياء كهذه بشكلٍ لافت مع مفردات التكنولوجيا وأسواق الرأسمالية وفوضى الفاعل الشعْبُوي وانفجار المعلومات والمعارف التواصلية.

إزاء ذلك تطرح الدراسةُ رؤيةً فلسفيةً حول قضايا تبدو بلا قيمةٍ، ملقاةَ على قارعة الحياة اليومية, لكنها قضايا تلعب دوراً خطيراً في مجالها. وتلجأ الدراسة إلى طريق مزدوج: بلورة ما هو حيوي، لكنه يأخذ شكل السطحي والمهمل. ثم: استنطاق السطحي لمعرفة أيَّة تفاصيل داخله ولماذا يظل متخفياً ومتخذاً صفة الضروري.

التفاهة كمُعطى اشكالي

علينا التفرقةُ بين عدةِ قضايا في تاريخ الفلسفة، لنعرف موقع التفاهة بينها، وكذلك حتى نوضح كيف تبدو وما هي أبعادها؟

1- قضايا رئيسة أغلبها ميتافيزيقية وأنطولوجية وقد طرحها الفلاسفة بصورةٍ أساسيةٍ: الوجود، الإله، الموت، الحياة، الكون واللاهوت. كانت بمثابة الموضوعات الكبرى في تاريخ الفلسفة. وأخذت وضعاً مركزياً في التفكير الفلسفي الغربي لدرجة أنَّ اسئلتَّها هي الأسئلة الأم من طاليس حتى هيدجر.
2- قضايا تُحْمل على الأُولى مثل القضايا الأخلاقية والدينية والاجتماعية بحسب النسق الفلسفي وعناصره. فالأخلاق ترتبط بالميتافيزيقا واللاهوت، وليس أقرب إلى ذلك من رأي كانط: أنَّ الاخلاق ترتبط بالدين. على سبيل المثال، الدين الطبيعي natural religion كمنظومة أخلاقية (بالإشارة إلى حرية الذات) يُفَعِّل غايته المطلقة (وهي تصور الإله كخالقoriginator للعالم) ويعود إلى زمنية الوجود الإنساني مقارنة بكليةِ هذه الغاية وخلودها، وبالتالي فهو دين يقدم مفهوماً عملياً خالصاً للعقل[1].
3- قضايا إبستيمولوجية تؤسس للنوعين السابقين، كالمعرفة والعقل والخيال والنفس والروح والشخص. فكل تفكير انطولوجي ولاهوتي يحتاج إلى نظرةٍ معرفيةٍ يتأسس وفقاً لها. وتعد نظرية المعرفة مدخلا لفهم المذاهب الفلسفية التقليدية.
4- قضايا حياتية يمكن أنْ يعالجها التفلسف، بل يطرح آراء جريئة شريطة أنْ يستطيع التساؤل فلسفياً على نحوٍ جذري، وفي الآن ذاته أنْ يكون التساؤل نافذاً تجاه مشكلاته. مثل مناقشة الدُجماً والسلطة الدينية، المقدس وتحولاته.
5- قضايا ليست أصيلةً في مجال الفلسفة وتأتيها من الخارج. يثيرها - مثلاً - الفن والأدب ثم تستغرقها الفلسفة بالتأمل: كالتمرد والألم والضحك والاغتراب كما عند سارتر وألبير كامي وبرجسون. وهؤلاء الفلاسفة جعلوها مادةً لأسئلة فلسفية عميقة تكشف عصراً بمجمله.

على وجه التقريب تنتمي التفاهة إلى حزمة القضايا الأخيرة. وإذا كانت التفاهة غامضة، فهي تثير أفكاراً خاصة بطبيعتها وتحولات الثقافة معاً، كما أنَّها تقتضي الفهم والتأويل لا الملاحظة والرصد فقط. جوهر الإشكال كالتالي: كيف يكون ثمة فضاء

---

[1]-Immanuel Kant, Religion Within the Boundaries of Mere Reason and Other Writings,(Series of Cambridge texts of the history of philosophy) ,Translated and Edited by Allen Wood, George Di Giovanni, With an Introduction by Robert Merrihew Adams, Cambridge University Press 1998, P 155.

لدلالة التفاهة بالنسبة للإنسان والمجتمع؟ هل نحن نعيش– كما يقال– عصر التفاهة، هل يجوز أصلاً هذا الوصف؟

يطلق المفكر والروائي الأسباني كارلوس زافونCarlos Zafón تحذيراً أشبه بصوت النفير تجاه عدو آت من وراء غبار: " لن يفنى العالمُ بسبب قنبلة نووية كما تقول الصحف، بل بسبب الابتذال والإفراط في التفاهة التي ستحول العالم إلى طرفة سخيفة ". ربما بصدد فناء العالم يدعونا الموقف للتساؤل عن أية قوة وراء ذلك. وإذا كانت الأسلحة التدميرية لا تقدِر(إلى حد بعيد)، فقوة الابتذال والتفاهة أكبر تدميراً. والنظرةُ هنا تدين الجانب الاخلاقي والسياسي تحديداً، لأنَّ الاثنين قادران على تعميم آثارهما. ولن يكون هناك سوى محاولة فهم هذا المعطي الواسع الانتشار. والأغرب أنَّ "حد الافراط" لا يعني بث التفاهة كملح الأرض فيما هو ضروري، بل هو مرحلة التأسيس والانكشاف لما هو تافه في صميم الصورة العامة للعالم.

هذا معناه أنَّ التفاهة طالما ستخرج للسطح، فالمهم معرفة ماذا تحتها بالتحديد. فكما أنَّ كل شيء مهم لا يظهر بما هو كذلك إلاَّ بقانون(نظام – آليات – أُسس)، فالتفاهة تتجلى بالقانون نفسه أو بقانون آخر حيث يلتقيان معاً. فهي ليست مشكلة عارضةً تذوب بمرور الوقت، لأنَّ هناك خللاً جوهرياً سيكون مسؤولاً عن أية أعراض تابعة. وإذا اعتبرنا التفاهة داخلة في نطاق باثولوجيا العقل المعاصر بلغة فيلسوف النظرية النقدية أكسيل هونيث honneth[2]، فالأمراض لا تأتي خبط عشواءً وبخاصة لو كان طابعها عموميا. وعليه لابد أنَّ ثمة جانباً عميقاً أفرز هكذا ظاهرةً مركبةً.

والخلفية العامة للتفاهة تربطها بتفاصيل تبدو محل عناية من قبل المجتمعات، وهذا ما يجعلها نمطاً من التفكير الهش والحياة المستهلكة والممارسة الفارغة حيث تسقط فيها فئات اجتماعية وسياسية، وقد استثمرت أوضاعاً ما لتحقيق مصالحها. لأنَّها ستكون أسهل الطرق لذلك الهدف، مما يعنى أنَّ هناك تاريخاً كرس هذا الحال. علماً بأنَّ كل تفاهة تستحضر نهايةً ما لتضييع المعايير تماماً، أي هي التي تضيّع الأصالة معتبرةً لا قيمةَ لشيء في ذاته. ولذلك ترتبط بممارسات لاواعية تتسرب إلى الحياة من ألصق الأشكال السياسية والاجتماعية.

---

[2] **-Danielle Petherbridge, Introduction: Axel Honneth's Project of Critical theory, In: Danielle Petherbridge(editor), Axel Honneth: Critical Essays: With a Reply by Axel Honneth (Social and Critical Theory A Critical Horizons Book Series-Volume 12), Brill :Leiden - Boston 2011. PP 1- 30.**

عند تلك النقطةِ، تعدُّ التفاهة سمةً عابرةً للاتجاهات والفئات لكونِّها مرتهنة بثقافة مهيمنةٍ يُعاد انتاجها لدى أغلب الأفراد، وهذا يتم كذلك بواسطة المواقع المؤثرة التي تظهر خلالها. وهناك شبه تضامن بين عناصرها متغذيةً على علاقات السلطة والظهور المباشر. أي تعيد انتاج سماتها حتى تشكل وضعاً يكيّف العقول للتعامل مع الأحداث.

التفاهة بهذه التكوين لا تحتاج إلى مثيرٍ حتى تُخْرِج مَا في جوفها. إنَّها تقف في مجرى الحياة ضمن ما هو هامشي وضروري على السواء. يؤكد أرسطو أنَّ امتلاك الخيرات الخارجية جعل معظم الناس يتعلقون بالمظهر. ويلاحظ: " أنَّ بعض هؤلاء الناس يوفقون في جميع شؤونهم ويبلغون النجاح على الرغم من حُمقهم"[3]. لكن الفارق بين العقل الجاد والحياة الحمقاء يثير المقارنة يستدعي الأشياء غير المهمة. لدرجة أنَّ من يقارن سيحاول أنْ يفهم ماذا يحدث إنْ كان الغالب هو الحُمق.

لعلَّ أرسطو طرحَ الخيرات الخارجية كعلاقةِ مع الآخرين، وأنَّ الجانب الشكلي له الغلبة في المجتمعات، ولكنه ليس الجانب الصحيح دائماً. وأنَّ ثمة فارقاً بين الحقيقي وبين نقيضه. وهذا لا يترتب على الأخذ بمعيار الاتفاق مع الآخرين بحسب الخيرات الخارجية، أي الظاهرية. كما أنَّ الظاهر لا ينقلنا إلى خانة الجوهري بالتبعية. ولذلك فالظاهري قريبٌ من الحمق أو العكس، وهو ما قد يجعل المنتمين إليه ناجحين في أغلب الأحوال بمنطق الظاهر.

في هذا الاتجاه، تمثل الفلسفة فنَّ استشكال العرضي والطارئ ومعرفة موقعهما من الحقيقة وكيف يتجليان. وبخاصة أنَّ المظهر يصبُّ في مجرى الحياة اليومية التي قد ترتبط بممارسات سطحية. إنَّه نداء تاريخي بعودة الفلسفة إلى منبتها الأول(كانت فناً للعيش وفق الحكمة الدالة وراء الأشياء، العيش وفق الكل بقول هيراقليطس: من الحكمة معرفة أن كل الأشياء واحدة، اللوغوس هو دائماً الكل ويوجد للأبد[4]). إنَّ العمل عبر الحياة الجارية كمعطى تاريخي يجذب التجريد إلى محتواه النسبي. ودون إثارة مشكلات الحياة(كالتفاهة، الحمق) لن تستطيع الفلسفة أنْ تقول شيئاً ذا بالٍ أو ستسقط في شكلٍ مقلوبٍ من الأوهام. فالبحث عن نظام متعال يحكم تجارب الحياة المعيشة هو صورة مقلوبة لما يجري بالمجتمع(سلطة الواقع معكوسة فكرياً).

---

[3]- أرسطو، دعوة للفلسفة (كتاب مفقود لأرسطو)، تقديم وتعليق وشرح عبد الغفار مكاوي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، د. ت، ص 31.

[4]-Heraclitus, Cosmic Fragments, Cambridge University Press, London 1954. P 203.

إنَّ الأحداث والأفكار والأفعال وردود الأفعال التافهة تثيرها تفاصيل أساسية دون حصرٍ، فقد تتعلق أشياءٌ كهذه بحالة قمع سياسي. حيث يتم استغلال المُناخ السائد لإبراز قضايا تافهة وتمكين شخصيات على المستوى نفسه. كذلك انتشرت سمةٌ كهذه لدى الأنظمة الفاشية باسم الدين حين تركِّز على الشكليات دون الجوهر وعندما ترى في خضوع الناس معياراً لتماسك المجتمع واستقرار الدولة.

في حين يقول المنظور العام إنَّها تفاصيل لا تُوقِّف كرةَ الثلج عن الانحدار في هوةِ التخلف. وقد يكون العكس: أنْ يحدد الطابعُ الديني مظاهر سياسية تتواءم مع حالات التفاهة والبلاهة. كأغلب إنْ لم يكن جُل الأنظمة السياسية المتخلِّفة التي تجسد وضعية المفارقة. كانت نتيجتُها غياب العقلانية التي سمحت بتغلغل الإرهابيين داخل المواقع الحيوية إذ قادهم الإغراء إلى دائرة اسمها الدولة الدينية بعناوين شتى.

وعلى صعيد جماهيري قد تأتي التفاهة إفرازاً اجتماعياً(سياسياً) لذهنيات خفيفة الوزن تتواءم مع الظروف الجارية، وتحرص كل الحرص على تفريخ مضمونها بصور متواترة. مثلما يحدث خلال المناسبات والأحداث(الاجتماعية والدينية) المسيَّسة إذ تكرس أنشطة وبرامج إعلامية وسياسية وفنية ونصوصاً مؤدلَّجة. لقد أصبحت أحوالاً بهذا الوزن عنواناً لتفاهات مزمنة لا تترك العقل دون تدميره. إذ تحرص بعض الأنظمة السياسية إقليمياً وعالمياً على إدارتها(التفاهات) لخلق وعي شعبي زائف بقضاياهم الأساسية. فالثقافة العولمية تتسع لتوظيف الصراعات الدينية والسياسية بإثارة النعرات الطائفية وإحياء النزاع وبث مواد إعلامية تخدم الفكرة.

وهذا يتحول إلى تفاهةٍ انشغالاً بالمسألة السياسية وحدِّها، وحين يطرح مؤيدو الأنظمة المذكورة تناولها من جانب ثانوي لا يمس بنية المجتمعات التي تراجعت عن عصرها. وكأنَّ المسألة هي حل الصراع أولاً كشرطٍ لها، بينما علينا إيجاد صيغة للتعايش أكثر من أي شيء آخر. إنَّ تأجيج الصراع سواء بين الطوائف أم الأديان هو أمر تافه لأنَّه سيُغرق الجميع. أو كما يقول توماس هوبز "حرب الجميع ضد الجميع" حيث يتم اخضاع بعضهم لصالح البعض بالحروب والقوة القاهرة كأحد الطرق لتكوين سلطة سياديةsovereign power أولية[5]. فالتفاهة قد ترجِع بالدولة إلى ما قبل مرحلة المجتمع، حالة بدائية من نشُوب الفوضى وبالتالي يصبح الكل صيداً للكل دون جدوى.

---

[5]-Thomas Hobbes, Leviathan or the Matter, Forme, & Power of a Common-wealth Ecclesiasticall and Civill. printed for Andrew Crooke, at the Green Dragon in St. Pauls Church-yard 1651(Prepared for the McMaster University Archive of the History of

فلئن كانت سياسات الأنظمة مرفوضةً، فهي تُدير مشاهد التفاهات لإذابة أية قوة للإرادة الشعبية، وأول ما ينبغي إزالته هو الوعي والفهم، وتلخيص وجود الأفراد– كما يقول دو سارتو- في استثمار فعل التعبير(التأييد)عن القضايا كنوع من الإيهام[6]. كانت التفاهةُ أحد أساليب الإلهاء الساخر، بينما تجْهل الأنظمة أنَّها بذلك ستخلق أجيالاً على المستوى ذاته. فهي تستعمل التفاهة داخلياً كسلعةٍ مخدرةٍ لمن يتعاطاها، لكن أثناء الأزمات لن تجد إلاَّ شعباً مغيَّباً دون إرادة التحضُر والتقدم.

إنَّ التفاهات لونٌ من الوجود البديل يتم في سرية من خلال الظهور بمظهر الجدية المفرطة. فإذا كانت الشعوب تتطلع لحياة أفضل، فلن تتحقق إلاَّ بتطوير جذري لأسس الحياة السياسية، بما يتيح الحرية والمساواة. لكن تكون تلك النقطة هدفاً استراتيجياً للأنظمة الحاكمة المتخلفة، لأنَّها تراوغ أي هدف بإلباس التفاهة لباساً قشيباً، جعلها حلبة سباق في دائرة السلطة وابعاد رافضيها عن تطلعاتهم المشروعة. وتتحول التفاهات إلى بنية مشتركة وقوية، وتشعر أصحابها أنهم ينافحون عن وجود حقيقي. وفعلياً ينخرطون في تفاهةٍ تتكلس تاريخياً، وتحتاج إلى نقد متواصل.

هذه البنية-عندئذ- تغدو أضعف من أي غطاء يحجب التغيرات في جسد المجتمعات البشرية. ومثلما تكون لدي التفاهة خاصية التمدد الذاتي بآلية التشابه والتماثل، فالنقد يبرز انكشافها كبنية أيضاً. لأنَّها تصبح أسيرة قانونها الذاتي من جهة اعلانها عن نفسها. وهذا يثير اسئلة حول: كيف تتأصل التفاهة في المجتمعات؟ هل هي آثار جانبية للأنظمة السياسية؟ هل هي صناعة ثقافية وما علاقتها بالتاريخ؟ هل يمكن افتعال التفاهة في سياقٍ ما؟ هل التفاهة شرٌ سياسي أم ماذا؟ هل التفاهة سياسات استعمال البشر في حدود الصراع والتزييف؟

بالتوازي انتشرت التفاهة بصيغة الجمع(تفاهات) عبر الوسائط الالكترونية، فأصبح العالم الافتراضي كتاباً مفتوحاً للتفاهات وتخزينها، بدءاً من الأخبار والشائعات والإفاضة في شطط التفاصيل والثرثرة وترويج الأكاذيب مروراً بالعلاقات السلبية، وليس انتهاءً بفوضى الكتابات والتعليقات وبث الصور الهازئة.

Economic Thought, by Rod Hay) Ontario - Canada 2000 ,P106.

[6]- ميشال دو سارتو، ابتكار الحياة اليومية، فنون الأداء العملي، ترجمة وتعليق وتقديم محمد شوقي الزين، الدار العربية للعلوم ناشرون- بيروت، منشورات الاختلاف- الجزائر، دار الأمان- الرباط الطبعة الأولى 2011،ص ص 308- 309.

هكذا غدت وسائط التواصل الاجتماعي ساحة لنفايات التفاهة من أي نوع، ذلك لكونها فضاء للبوح واشغال الوقت والتفكير السطحي. ويُفسر وضعُها من تلك الجهة باعتبار أنَّ القهر الذي تعيشه الشعوب يجد له تنفيساً من خلالها. وبدلاً من ميادين المقاومة والفعل في الحياة السياسية، تلجأ الشعوب إلى الافراز الافتراضي لما تلوثها من فضلات الأنظمة وآثارها. وهنا ليست التفاهات إلاَّ تقيؤاً سياسياً كمقابل لعملية القهر والهيمنة. ولعل شراسة التفاهة تشتد في طرح موضوعات السخرية من الشخصيات والإيعاز بالكراهية لأصحاب الديانات والتكالب على المواد الفنية الهابطة والمواقع الإباحية وترويج الشائعات والفضائح. هذه أعلى نسبة تفاهات قد تبتلع وعي الجماهير عوضاً عن التركيز في أمور مهمةٍ.

دوماً تطفح التفاهة بالأفكار المهيمنة لدى متصفحي وسائل التواصل الاجتماعي، وبخاصة غلبة الآراء الثرثارة حول الأحداث والغوص في التفاصيل الغثة. لقد أصبح ذلك أهم علامات العصر ما بعد الحداثي مع تطورات سؤال التقنية الذي طرحه مارتن هيدجر، فإذا كانت التقنية برأيه عملية كشف وتجل للأشياء، فهي الأن تضيع هذا الوجود تجعله فارغاً من مضامينه، ليصبح عالماً خارج سيطرة الإنسان ويعيد استخدامه بشكل مغاير مهدداً وجوده وتاريخه[7].

من زاويةٍ أخرى، بدت الاعمال التافهة هي الطاغية بوضوح، فالفنون الأدائية والكتابية والرياضة وظواهر التعامل العولمي مع الأجساد وثقافة التجميل ... جميعها تركت آثاراً في طغيان قيم التوليف والتصنيع والتخليط وإشاعة روح المغامرات الفردية. لكن الأخطر أنْ تتميَّع الأمور، وأنْ تنتَّهك المهن والأعمال فكرتي الدقة والابداع. وذلك بفعل انتاج القيم الاقتصادية المرتبطة بالأرباح والاستهلاك عشوائياً. إذ بات العالم سُوقاً بمعنى الكلمة، وصَغُر لدرجة أنَّ البضائع نفسها تُوجد في أي مكان منه وقد اختفى التنوع والاختلاف.

آفاق فلسفية

يجب الإشارة أنَّ الفلسفة تُجدِّد صلاحية أيِّ موضوع للتفلسف ولو كان مهملاً، فما بالنا بحالة " التفاهة" كظاهرة. فلربما تحركها جوانب ميتافيزيقية بهذا المعنى أو ذاك، وربما تمثل نمطاً من الحياة يصلح لعمل فلسفي عميقٍ. والفلسفة تتأمل أية ظاهرة باحثة وراء جذورها البعيدة كحدود قصوى لما هو قريب. وأتصور أنَّ التفاهة تطلق(بدلالتها المتنوعة) مزيداً من عمليات الحفر في تصوراتها ومقولاتها. وفعل الإطلاق– كتفكير- ليس مجهولاً، ولكن باعتبار الحياة والموت والماوراء موضوعات

---

[7] - Michael Inwood, A Heidegger Dictionary(The Blackwell Philosopher Dictionaries), Blackwell Oxford 1999, Pp 209- 212.

جادة، فإنَّها ترتبط بتفاصيل أخرى(تافهة) تأتي عرضاً. وإنْ لم يصل الفعل الإنساني إلى غايات جادة، يأخذ مساراً أقل جدية مرتهنا بمدى تأثيره ومعانيه الأدنى.

وفي هذا تعري الفلسفة أيَّة أفعال تنقيباً عن آفاق الإنسانية، وتبحث عما هو إنساني كلي في أبسط الأمور. أي تطرح الفلسفةُ الكوني المشترك، وتبرز مضامينه الفكرية دون انحياز ساذج. هي عملية اكتشاف بالدرجة الأولى ولا ينبغي أنْ يُطلب منها أنْ تحدد قيماً أو تضرب موعداً مع أيِّ قدر لاهوتي أو سياسي أو اجتماعي، لكنها معنيَّةٌ بشق الدروب الخطيرة وخوض غمار الفكر البشري. ومن ثمَّ، فالفلسفة تقنية لتوسيع الآفاق وصقلها، حتى ولو كانت مجهولة المنبع والعمل. المهم أنْ تحمل الفلسفة مسئولية قضايا العقل وتشق أكثرها خطراً طالما تقدر على ذلك.

وترتبط أفق المعالجة الفلسفية بأبنية التفاهة: فهي ترجع إلى نقص التميُز والقيمة، وهي في بعض منها الحقارة، الدناءة. فلان يشتغل بتوافه الأمور، أي يعمل بما لا قيمة له. وهذا من شأنه أنْ يُلحِق به أوصافاً غير أخلاقية. فما بالنا إذا غلبت سماتُها على أجواء سياسية اجتماعية في حياة الناس؟! بالتأكيد ستكون للفلسفة نظرة أبعد مما لو جاءت التفاهة سلوكاً فردياً، لأنَّ الأسُسَ عندما تُصاب بالعطب، ستنتج في خفاءٍ كلَّ مظاهر التسطيح. ولربما سيخْفى على كثيرين أنَّهم يمارسون دور التافه نفسه. فالتفاهة لا تأتي صريحة انتظاراً لأوصاف مُشينة، إنما تخادع فاعليها حتى أخر مبرر سياسي واجتماعي في جعبتهم.

إذن ليست التفاهة أخلاقيةً بضربة واحدةٍ حتى تُشجَب بما يجب أن يكون ought to، ولا هي ميتافيزيقية ليأتي نسق مُحكم صورياً يستأصلها بمفاهيم شاملة حول الإنسان والواقع، ولا هي اجتماعية بحيث يكون المجتمع قادراً على طردها، ولا هي سياسية فقط كضربٍ من ضروب إدارة الشأن العام. التفاهة لحظة حياتيةٌ أشبه بانكشاف الحقيقة لنعرف فاعلية هذه الأشياء بمعرفة قيمة الإنسان ومدى تأثيره، وكيف يمارس حياته وأية معان بعيدة تتداخل معه. من تلك الزاوية تبدو التفاهةُ رؤية حياتية ونمطاً أسهمت في تكوينه وترسيخه عوامل عدة.

يجب التفرقة بين التصور الثقافي العربي للتفاهة والتصور الغربي لها، باعتبار أنَّ الثقافة تحدد طبيعة ما هو تافه، وتعطيه طابعه تحت حراسة المعتقدات الجارية. وبالتالي سيكون للتفاهة بُعدٌ تاريخي مرتبط بالنشأة والتكوين والممارسات.

أولاً: تصور أخلاقي فردي individual: وهو التصور الذي تتعامل به الثقافة العربية حيث يُشاع المنطق الاخلاقي- الفردي، لأنَّها ثقافة تحريْم من جهةٍ ولتبرئة الفاعل العام من جهةٍ أخرى وتغليظ السلطة المهيمنة ثقافياً من جهةٍ أخيرة.

ففي المُعجم العربي: " تَفِهَ الشْيءُ يَتْفَهُ تَفِهاً وتَفُوهَاً وتَفَاهَةُ: قَلَّ وخَسَ، فهو تَفِهٌ وتَافِهٌ. ورجلٌ تافِهُ العَقلِ أي قلِيْلُهُ. والتافِهُ: الْحَقِيْرُ اليّسْيرُ، وقِيْلَ الْخَسِيسُ القَلِيْلُ"[8]. واللغة توثق هنا المعنى بأصوله الثقافية. ليس هذا فقط، بل تكشف آليات عمل الثقافة وكيف تحجب الرؤية حول ما تقرر وتمارس. ولا يفوتها أنْ تحدد طبيعة المعنى إزاء الزمن الآتي بالمثل.

لنُلاحظ إزاء تلك الكلمات ما يلي:

1- التفاهة تخص شيئاً ما ولا يوجد احتمال لأنْ يكون غير ذلك، أي هي سمة نوعية له، من طبيعته، من معدنه إنْ كان إنساناً. وبالتالي ليست التفاهة من نظام يورطه فيها أو نتعقب آثارها خارجه. واعتبرها ابن الجوزي غريزة(في بيان أنَّ الحمق غريزة)[9]. لذلك أورد الحمق مقروناً بأسماء الكُتَّاب والفقهاء والمفسرين والشعراء والأمراء والعاملين والرواة للحديث وسواهم. الاسم يقابله الحمق كخلل نفسي عقلي ولا دور هناك للنظام ولا الثقافة.
2- التفاهة أخلاقية في المجال الإنساني، فليس للنظام الاجتماعي ولا لبنية المجال العام أيُّ شأن بها.
3- ترتبط التفاهة بقدرات العقل ايماءةً إلى الخفة والعتَّه والضعف الذي يصاب به الفرد. ولا يغيب أنَّه حين نسمع الحمق، نشعر بعدم ادراج صاحبها بين ناضجي العقل. أي سيُنظر إليه على أنَّه قليل الشأن ومحدود العقل ومهمل الحال.
4- الكلمات تحمل سلفاً تبرئة أيّة سلطة عمومية من فعل التفاهة. لتؤكد أنَّ التفاهة تأتي من تلقاء نفسها. وأنَّ أنظمة المجتمع لا ترتبط بالموضوع.
5- تغيّب الكلمات أية دلالة سياسية، أي تنفي تسييس التفاهة رغم وجود للآخرين على نحو غير شخصي. بمعنى أنَّه لا يوجد من هو تافه إلاَّ بالنسبة لغيره.
6- هناك حطٌ من قدر التافه ممزوجاً بالإدانة الأخلاقية، أي أنَّ السياسة الساقطة من الكلمات تحيل التوافه إنْ وُجدت إلى سلطة الأخلاق. وهذه السلطة تحيلها إلى دلالة العيب. وبالتالي سيظل التافهُ ضحية نفسه(قضاء وقدراً) بلا فاعل عمومي ولو كان واضحاً. وأن أي جريمة ستقيد ضد مجهول، وأنه بمبرر نفسي سيوضع تحت درجة النُضج(تحت الوصاية).

---

[8]- ابن منظور، لسان العرب، الجزء الثاني، تحقيق نخبة من الأساتذة، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص 437.
[9]- أبو الفرج بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين(من الفقهاء والمفسرين والرواة والمحدثين والشعراء والمتأدبين والكتاب والمعلمين والتجار والمتسببين وطوائف تتصل للغفلة بسبب متين)، شرح وتعليق عبد الأمير مهنا، دار الفكر اللبناني، بيروت1990 ، ص ص 24-25.

7- تتزيد الثقافة في مطاردة التافه حتى تعتبره حقيراً ممقوتاً. وهذا بالسياق العربي معناه "وصمة عار" لن يبرأ منها. وأنَّ ذلك سيُحيله إلى فئات اجتماعية مهملة نظير خطيئة التفاهة. أي نظير تفاهة الشخص سيَلقَّى مصيراً بالأسلوب نفسه.

بدليل أنَّ التفاهة تطلق على المرأة، تقول اللغة العربية عن المرأة التُّفَهُ[10]، أي المحقُورة، محل الاحتقار الدائم. ولم تنتبه الثقافة العربية إلى أهمية الدلالة العمومية للتفاهة إلا مع كلمات الدين: سئل رسول الإسلام عن تحذيره من (الرويبضة)، قِيْل يا رسول الله... وما الرويبضة؟، قال الرجل التُّافه ينطقُ في أمر العامة[11].

لكن وردوها في سياق الفتنة(السنوات الخداعات التي يكذَّب فيها الصادق ويصدَّق فيها الكاذب) جعل الكلمة مستبعدةً طوال الوقت. وإنْ جاءت، فسيكون ذلك قدراً غير مقصودٍ، كأن التحذير كان استثناءً مرهوناً بقادم أيامٍ لن تأتي على الأحياء (بمجال الأخرويات ونهاية العالم). والدليل أنَّ الجماعات المتشددة تُفرز عقولاً تلوك التوافه (طقوس التدين الشكلي) باستمرار. وأصبح من يدَّعِي مقاومة التفاهة موضوعاً للوقوع في التفاهة.

ثانياً: تصور مفهومي نسقي systematic كما في الفكر الغربي، لتدُل كلمة التفاهة banality على شيء يفتقد الأصالة أو ناقص الطزاجة والجدة

something that lacks originality, freshness, or novelty ، وكذلك تدل على حالة عدم وجود صفات جديدة أو غير مثيرة للاهتمام، وتعني انعدام مواصفات الجودة كونَّها حالة عادية. the quality or state of lacking new or interesting qualities[12]

لندقق أنَّ هذا التعريف البسيط تعريف بالمفهوم وليس بالمعنى. والمفاهيم تحتاج إلى بنية عقلية تعبر عن تطور تاريخي ناهيك عن علاقة تواصلية عامة تستعملها. ولا يتم هذا إلاَّ في إطار فلسفات تبلور مقاربة المفهوم وتنحت دلالته بحسب نظام الأفكار. ولذلك تهجس كلمة التفاهة في الفكر الغربي بما هو غير أصيلٍ. لكن ما مغزى ذلك؟ المغزى أن هناك معايير ضابطة للمجتمعات تستحثها نحو التقدم. وإلاَّ لما كانت الأصالة نوعاً من الاتساق مع قدرة تاريخية على التميز والإضافة. إنَّ كلمة التفاهة

---

[10]- ابن منظور، لسان العرب، الجزء الثاني، ص 436.
[11]- المرجع السابق، ص436.
[12]- Definition of banality, In : Merriam Webster dictionary on this link:
(https://www.merriam-webster.com/dictionary/banality)

تفشي سر الثقافة الآخذة بكل ابداع ممكن. وأنَّ هناك إرادة عامة(الفضاء العمومي) لا تقبل ما يميّع المعايير، لأن الأصالة والابتكار معياران ضروريان لمسيرة الحياة. والغريب أنَّ الفكر الغربي ذاته هو الذي لا يجنب الإنسانية تفاهات عن طريق سياساته الاقتصادية والدولية حتى اللحظة!!

الأجدر لتوضيح الفكرة أنَّ التنوير كان ثقافة عقلانية عامةً دون حمق ولا تفاهة، كان وقاية من مناخ التفاهة كطريقة لرؤية الأشياء والعالم، ولذلك كانت تستعمل التفاهة في سياق عامٍ يمس الآخرين. وصحيح ليس من تفاهةٍ دون الآخر إلاَّ أنه ليس من هذين الطرفين معاً دون طرف ثالث وهو الكل، أي النظام الذي قد يفرز أفعالاً تافهة ويمارس اجتراراً لها. ولذلك كان ضرورياً- كما تمارس الفلسفات الغربية- نقد المبادئ والأبنية الثقافية التي تمثل حاضنةً لنمو التفاهات.

ولا تأتي جودةُ الأمور دون إعْمال العقل بلا حدود وبالدرجة الأولى وجود مواصفات للإنجازات المميزة. وهذا يُرجعنا إلى قضية التنوير عند كانط من حيث يجب للإنسان أنْ ينضو عن نفسه أيَّة تفاهات، تلك التي قد لا يكون هو نفسه مصدرها إلاَّ إذا خضع للآخرين. إذن شرط التفاهة(الدعة- اسقاط الحرية- خمول العقل- التقليد- الخنوع) هو علاقتنا بالمجال العام الذي يخضعنا لعوامل القصور، وهو ذاته-إذا ما تحررنا- شرطٌ الخروج منها وشجاعةُ للوعي والفهم.

يرى كانط أنَّ التنوير هو تحرر الإنسان من حالةِ الوصاية والقصور التي جلبها إلى نفسه self–incurred immaturity. الوصاية تحديداً هي العجز عن استعمال الفهم دون قيادة الآخرguidance of another . وليس القصور سبباً في جلب الوصاية، لكن السبب هو افتقاد الجرأة والشجاعة على استعمال الفهم إزاء الآخر. دوماً شعار التنوير(تجرَّأ لتعْرف Sapere aude): تجرَّأ على استعمال فهمك الخاص Have courage to use your own understanding.[13]

إذن لأول وهلةٍ سيكون التافه قاصراً ذاتياً تحت وصاية السطوُة والقوة، ذلك بسبب امتثاله لتوجيه الآخرين، لكن من هم الآخرون؟! هم الذين لا يريدون استعمالاً للفهم بشكل حر، ويضعون المرء تحت الوصاية، أي يسهمون في حالة تفاهةٍ تمحو قدراته الخاصة وانطلاقته نحو استقلال الذات.

---

[13]-Immanuel Kant, An Answer to the Question: "What is Enlightenment?", (Konigsberg in Prussia, 30th September, 1784), 2002 Blackmask Online. http://www.blackmask.com, P 1.

بكلمات أخرى، الوصاية والقصور أمران مفروضان ويتجهان صوب التعميم لإحداث ركود في إمكانيات التعقل. وكأنَّ التفاهة هي المصير الذي ينتظر خوفنا وخضوعنا للوصاية بأسماء مختلفة. ولذلك فإنَّ استخدام العقل تحت هذا القيد هو طوُق النجاة. تبدو التفاهة هنا ذات بعد خفي في أبنية المجتمعات، لأنَّها تدخل في لعبة علاقات القوى بلغة ميشل فوكو وبيير بورديو[14]، فالمرء التَّافِه يرتبط بمواقف المحيطين به وفي الوقت ذاته يدخل صراعاً للخروج من دائرة شبه مغلقة وغير مرئيةٍ، لكن يجب أنْ يكون الفهمُ اكثر اتساعاً وتحرراً.

وظهر ذلك البعد نظراً لارتباط التنوير بجوانب أخرى تبعاً لنشأته في بيئة تأثرت بالفلسفة العقلانية rationalist التي انتشرت في زمن كانط بفضل ليبنتز وكريستيان فولف داخل الجامعات وكذلك بنزعة الإحياء الديني المتأثرة باللوثرية Lutheranism والمسماة بالتقوية Pietism، وكلتا النزعتين(العقلانية والتقوية) أثرتا على كانط حيث نشأ في عائلة تقوية وكذلك اطلَّع على أفكار فولف، لكنه استطاع في فلسفته المتأخرة التحرر من فولف مقترباً أكثر من ديفيد هيوم[15].

هذا جعل فكرة التنوير منظوراً واعياً بهيمنة الأفكار وتحولات الدين وإن كان نوعاً من الطقس الخاص أو من رياضة النفس. حيث يرفض التنوير أيَّة وصاية باسمه على الذات وعلى الآخر. وهذه دعوة لاتخاذ المواقف نفسها من أي نشاط إنساني له مواصفات الدين، سواء أكان مذهباً أم أيديولوجيا، فالنتيجة بالنهاية واحدةٌ.

---

[14]- يقول بيير بورديو " إن السلطة الرمزية هي سلطة غير مرئية invisible حيث يمكن ممارستها فقط بتواطؤ complicity هؤلاء الذين لا يريدون أن يُعرفوا أنهم خاضعين لها أو حتى يعرفوا بكونهم يمارسونها".
-Pierre Bourdieu, Language and Symbolic Power, Edited and Introduced by John B. Thompson, Translated by Gino Raymond and Matthew Adamsom, Polity Press, Cambridge, 1991. P164.
-Pierre Bourdieu, On Television, translated from the French by Priscilla Parkhurst Ferguson, The New Press New York 1996. PP 39 - 65.
[15]- James M. Byrne, Religion and the Enlightenment: From Descartes to Kant, Westminster John Knox Press, 1997. p203.

ولم يكن استعمالُ العقل في نطاق الفلسفة فقط، إنَّما سياق عمومي (المجتمع)، ولذلك تحولت فكرة كانط إلى أدوات ومفاهيم تحقق هذا الغرض[16]. فهذا الوضع يبرز شيئاً واضِّحاً هو الجانب السياسي للتنوير، مثلما أنَّ التفاهة يتم تسيسهماpoliticization لصالح سلطةٍ ما. وهنا اتجه الفكر الغربي لتحرير العقل من العقلانية كمذهب قد يسقط في براثن التقاليد أو أن يصوغ نماذج للتفكير تتحكم فيه. وهذا جزءٌ من التنوير الكانطي[17] حيث يحارب بالمنطق نفسه كلَّ دجما تعطِّل الفهم.

لقد بدأت الفكرة بوجود المثقفين التنويريين الذين يهمهم بالمقام الأول تحرير إرادة الفهم لدى الإنسان العمومي، وكان لميلاد هذا الانسان الإسهام الأكبر في مسيرة الحداثة وما بعدها. وإذا أردنا كلمة مقتضبة، فالمثقف الحُر المعْني بالشأن العمومي كان علامةَ لتحوُل التنوير من التفلسف إلى الممارسة الهادفة praxis[18]. واستمرت الوظيفة سارية في عصور الحداثة وصولاً إلى أجيال النظرية النقدية من هربرت ماركيوز مروراً بيورجين هابرماس واستمراراً مع أكسيل هونيث ونانسي فريزر

---

[16]-J., Schmidt, (editor), "What Is Enlightenment?": Texts and Interpretations, University of California Press, Berkeley, 1996. PP 63-68.

[17] -Katerina Deligiorgi, Kant and the Culture of Enlightenment,(SUNY series in Philosophy George R. Lucas Jr., editor), State University of New York Press, New York, 2005. PP 55.

[18] - بلغ هذا المفهوم تطوره لدى أنطونيو جرامشي من خلال المثقف العضوي، وهو يهتم بالبراكسيس بوصفه تفاعلاً مع مشكلات الثقافة والمجتمع وكذلك باعتباره ممارسة قائمة على الاصلاح reformation الفكري والأخلاقي. ويعتبر جرامشي أن البراكسيس يفترض ماضياً ثقافياً مهماً مثل: النهضة والتحديث والتنوير والاصلاح الديني والفلسفة الألمانية والثورة الفرنسية والكالفينية Calvinism والاقتصاد الكلاسيكي الإنجليزي والليبرالية العلمانية secular liberalism والنزعة التاريخيةhistoricism التي كونت مفهوم الحياة الحديثة. و فلسفة البراكسيس هي نقطة التتويج لهذه التطورات العقلية والاخلاقية وتأخذ طابعاً جدلياً للنقاش بين الثقافة الشعبية والثقافة العليا.

Antonio Grarnsci, Philosophy, Common sense, Language and folklore, In: The Gramsci Reader, Selected Writings 1916 - 1935, edited by David Forgacs, New York University press, New York 2000. PP 350 - 351

وسيلا بن حبيب. وكذلك بالنقد والتطوير لدى فلاسفة ما بعد حداثيين مثل كرونيليوس كاستورياديس وبول فيريليو.

جميع ممارسات فلاسفة التنوير كانت ضد التفاهة المؤسَّسة على الأبنية الاقتصادية السياسية. والمعنى هنا اختراع كانطي فذ حتى غدا العقل نقداً عملياً لما يحول البشر إلى كائنات تمضُغ التفاهات وتخرج فضلاتها يومياً. لأنَّ الثقافة وسيط يظْهِر مقدار خضوع الإنسان لسواه وأنَّ تحرير العقول يبدأ من أرضيتها بالتحديد[19]. والفكرة أنَّ التفلسف بلغ اتساعُه الأفقي في شكل ثقافة يومية تزيح قهر الأنظمة وتنتقد الحياة اليومية. أي تبلورت آفاق التنوير في فعل ضد أية تفاهة تتسلل إلى الممارسات العامة، وغدا الوضعُ عقلاً عمومياً Public Mind[20].

من زاوية أخرى طرحت حنا أرنت مشكلة التفاهة في إطار فكرة الشر. على أساس أنَّ هناك شرَّاً غير مقصودٍ، ولا يدل على فعل مُطرد عن سابق إرادة. شر بالصدفة من غير أنْ يكون صاحبُه شريراً. لكن السؤال: هل للإنسان أنْ يفعل الشر دون أنْ يكون شريرًا بالضرورة؟!

هذا هو سؤال أرنت خلال عام 1961 عندما أرسلتها صحيفة New Yorker البريطانية لتغطية محاكمة القائد النازي كارل أدولف ايخمان Eichmann المسؤول عن عملية نقل ملايين اليهود وغيرهم إلى معسكرات الاعتقال لدعم عملية "الحل النهائي النازي". فقدمت أرنت تقريراً وافيَّاً على خلفية المحاكمة بطريقة فلسفية سياسية تمس قضايا التفاهة إجمالاً. وتناقش ما إذا كانت التفاهة تشكل فعلاً قاسياً أساسياً (في ظاهرة النازية) أم لا؟[21]

اكتشفت أرنت أنَّ أيخمان كان رجلاً عادياً، بل سطحياً، لم يكن منحرفاً ولا ساديًا، ولكنه إنسان "طبيعي بشكل مُرعب"، كان منغمساً في حياته ككل البشر. لقد تصرفَ بلا أيِّ دافع غير تعزيز مهنته في البيروقراطية النازية. لم يكُن ايخمان وحشاً غير أخلاقي، قام بأعمال شريرةٍ دون نوايا شريرة. لم يدرك ايخمان ما كان يفعله بسبب "عدم القدرة على التفكير من وجهة نظر شخص آخر"، فلم يهتم بالميتافيزيقا ولا حتى

---

[19] - Katerina Deligiorgi, Kant and the Culture of Enlightenment , PP 117- 118.

[20] -Michael Losonsky, Enlightenment and Action From Descartes To Kant, Passionate Thought, Cambridge University Press, 2001. P185

[21] -Hannah Arendt, Eichmann In Jerusalem, A Report On the Banality of Evil, (Revised and Enlarged Edition), The Viking Press, New York, 1964. P7.

بالقدرة على تحليل الأمور، كان أميناً لتطبيق الأوامر كما هي دون احتمال أن يفعل ما يؤدي إلى القتل والدمار. وظل محتمِلاً لصمته طوال الوقت كأنَّه حامل للأسرار bearer of secretsمؤدياً مهامه بدأب مثير للدهشة، يخلط في شخصه بين حامل الأوامر وحامل المعنى the Bearer of Meaning and the bearer of orders[22].

من ثم ترى أرنت أنَّ ايخمان يرتكب الجرائم بشكل عفوي بلا وعي[23]، وذلك بسبب افتقاره إلى هذه القدرة المعرفية الدقيقة. وكما قالت يرتكب جرائم في ظل ظروف يستحيل فيها أنْ يدرك أو يشعر أنَّه كان على خطأ ... فالعجز عن التفكير الحر والمتأمل كمْ دفعَ رجالًا عاديين لتنفيذ أفعال فظيعةٍ. وانطلاقًا من هذا الحدث صاغت أرنت مفهومًا جديدًا " تفاهة الشر" بديلاً للمفهوم الكانطي "الشر الجذري" الذي كانت تقتنع به. ولأنَّ شر ايخمان لم يمتد إلى طبيعته الداخلية ولم يمارسه بناءً على عقيدة أيديولوجية، فإنَّه شر لا قيمة له رغم نتائجه الكارثية. وذُهلت أرنت أنَّ ايخمان أثناء المحاكمة كان يتحدث بعبارات بيروقراطية إدارية لنقل الضحايا إلى معسكرات الاعتقال. وقد انهمك في تنفيذ أوامر مرؤوسيه بصورة حرفيةٍ كأنَّه يؤدي مهمة

---

[22]- Ibid, P 18.

[23] - الطريف أنَّ هناك(مثل فيلسوفة النظرية النقدية: سيلا بن حبيب) من اعتبر حنا ارنت قد وقعت بلا وعي في نزعتها اليهودية (فهل كانت غير مدركةٍ على غرار ايخمان) وقد ايدت أرنت الأحداث التاريخية للهولوكوست وتماهت إلى درجة التطابق مع فكرة الشعب اليهودي. ومن السخرية بالنسبة لأرنت أنْ يكون كتاب إيخمان في أورشليم كتاباً يهودياً بملء الكلمة.

Seyla Benhabib, Arendt's Eichmann in Jerusalem, In: Dana R. Villa(editor) The Cambridge Companion to Hannah Arendt ,Cambridge Companions Online © Cambridge University Press, 2006, P 65.

ومن قبيل التوضيح، اهتمت ارندت بكل القضايا اليهودية تاريخاً وسياسة وفكراً ودولة ومسألة عبر الثقافة الأوروبية، وناقش رون فيلدمان حالة ارندت في إطار فكرة اليهودي المنبوذ The Jew as Pariah :

Hannah Arendt, The Jewish Writings, Edited by Jerome Kahn and Ron H. Feldman, Schocken Books, New York 2007. PP xli-lxxii.

مقدسةً. ويتكلم بزخم الإشارات المسكونة بالمعاني مثلما حملت عملية التخلص من اليهود(الإبادة والقتل)المعاني نفسها بعنوان(الحل النهائيfinal solution)[24].

ورغم اختلاف السياق، إلاَّ أنَّ تحليل أرنت أظهر طبيعةَ التفاهة في مجتمعات يسود فيها نظام سياسي يخيم بأوامره الرسمية على البشر. فالحياة والموت مجرد قرارين ينتظران التنفيذ من أي ايخمان كان. فليس مطلوباً من مواطنيه سوى خلط الأوامر بطبيعتهم التلقائية، كما لو كانت فطريةً، متأصلةً في طبيعتهم، سهلة الجريان دون مساءلة. وهذه سمة أساسية للتفاهة: كونها تلقائية وتمارس حياتها من وقت لآخر بشكل سلس. والأهم أنَّ التافهين لا يعلمون أنَّهم كذلك بحال، بل يدافعون عن التفاهة دفاعهم عن وجودهم الحي!!

إنَّ وجود التفاهة ليست مسألةَ وصفٍ ولكنها ممارسة تتم كما لو كانت أساسية ولا غنى عنها. وهذا مصدر اعتبارها أحد وجوه العيش وكذلك بإمكانِّها الاعلان شكلِّها المُتاح. لأنَّها تقول بوجود أهداف سهلةٍ، إذن: فلماذا لا تلتفتون إلى ما أفعل. والملاحظ أنَّه في أنظمة ديكتاتورية استبدادية تتحول أية إجراءات رسميةٍ إلى تفاهةٍ لا حدود لها.

ويصبح المسؤولون– بطريقة ايخمان- مجرد تُروس بلهاء في آلة عملاقة تدهس كلَّ شيء، وتُلغي إرادة المعرفة والتحرر وتستلب وعي مواطنيها ككائنات هشةٍ. حتى إذا عمل أيُّ فرد بأي موقع، فإنَّه سيكون مجرد حارس لعمل أعمى، لا يُبصر، ولا ينظر إلى الأمام. ولذلك ناقشت حنا ارنت في كتابها "المسؤولية والحكم": كيف تكون ثمة مسؤولية شخصية تحت الحكم الديكتاتوري؟ وناقشت الذنب بالصمت(The Deputy: Guilt by Silence?) معتبرة أنَّ معرفة طبيعة الأنظمة الشمولية لا تترك مساحة لذلك ردا على القول بإمكان الهروب من الأوامر القاتلة كما كان يجب أن يحدث مع ايخمان. وأنَّ المسألة قد تُصبح أخلاقيةً أكثر من أي شيء آخر، ومع ذلك لن يكون أصحابُها قادرين على تعلُّم شيء بحكم النظام المهيمن وأنَّ الظروف التي يوجد فيها المُدان لن تكون سهلة على الاطلاق[25].

ولئن أوضح ذلك شيئاً في مسألة التفاهة، فأنظمة السياسية تعتبر التفاهة إحدى استراتيجياتها للأفعال البديلة تجاه قوى المجتمعات. لأنَّه لا يهمها ايقاظ الفهم والمسؤولية الفردية، فهذا لو حدث لقوبلت الأنظمة بالرفض نظراً لتسلطها. من هنا تلونت التفاهةُ بلون الاحتقار الذي يتوافر في المناخ الرأسمالي المتوحش.

---

[24]-Hannah Arendt, Eichmann In Jerusalem, P43.

[25] - Hannah Arendt, Responsibility and Judgment, Edited and with an Introduction by Jerome Kohn, Schocken Books, New York 2003,PP 18-25.

وبوضوح أثيرت مشكلة الاحتقار بصدد أنظمة متورطة في ازدراء الإنسان، تثار بقطع النظر عن أنْ تمس ذواتنا الخاصة أو الآخر الذي يغايرنا. إنَّ الانظمة السياسية تخلط الأمور وتضع مواطنيها في مكانة غير جديرة بالتقدير. وعدم الاحترام لا يتم بقرار ضمني، لكنه موقع ينم عن تجاهل المواطنين والتباطؤ في اتخاذ ما يليق بهم من إجراءات وحقوق تكفل حياة كريمة وعدالة منصفة ومساواة لائقة.

لقد انشغل أكسيل هونيث بتلك القضية في كتابه الاحتقار: الأسس المعيارية للنظرية النقدية[26]. Disrespect: The Normative Foundations of Critical Theory وهو كتاب عنْونَّه هونيث باللغة الألمانية، آخر العدالة: مقالات في الفلسفة العملية، ثم ترجم إلى الإنجليزية تحت عنوان(الاحتقار) المذكور تواً. إذ يهتم بكيفية فهم قضية مركبة تخص التقليل من الإنسان وتركه في حالةٍ محقَّرة. ولم يناقشها اخلاقياً في موضع ما ينبغي أنْ يكون، حيث يبدو حيادياً متروكاً لتصرفات فردية تسقط من السماء على المارَّة وبحسب صراع المعايير في مكان فوقي ما.

إنَّ الاحتقارdisrespect - ومن ثم التفاهة- ليست مسألةً نفسيَّةً تخصُ الأفراد، بل تخضع لديناميات اجتماعية social dynamics مركبة ويصعب فصلها عن الواقع المعيش. لأنَّ الاحتقار لا يحدث مصادفةً داخل الإنسان دون شروط اجتماعية وسياسية تفرضه فرضاً، عاملة على اعتباره واقعاً بالفعل، بل تُدخِلّه شبكة من علاقات القوي التي تمارس الاحتقار يومياً وفي أغلب المجالات التي تخصه. من هنا يعتقد هونيث أنَّ أي واقع معقد complex ومتغير يمكن دراسته كشبكة متعددةٍ وله طابع متداخل التخصصات interdisciplinary[27].

وإذا كانت هذه نظرة منهجية حول أية ظاهرة، فهي تعتمد على التشخيص diagnosis، مثلها مثل الأمراض الاجتماعية متعددة العلل والتداعيات. والاحتقار كظاهرة اجتماعية مرضيَّة pathological تعد أثراً لمواقف اجتماعية هدفها الهيمنة على الطبيعة الإنسانية. أي تحاول فرض سطوتها على الحياة في المجتمعات. وظهرت هذه الفكرة لدى نظرية هابرماس التواصلية بقدر ما أفردت مساحة لتشخيص الأزمنة

---

[26] - Axel Honneth, Disrespect: The Normative Foundations of Critical Theory, Polity Press, Cambridge, 2007.

[27] - Ibid, P 63.

الناجمة عن خطر استعمار عالم الحياة colonization of life-world بواسطة أنساق العقلانية المختلفة[28].

إذن فرض التفاهة بما هي احتقار(عدم احترام Missachtung) يعني:

أ- نوعاً من الهيمنة التي تجد دروبها السرية في اعماق المجتمعات وأزمنتها.
ب- أنَّها تستهدف نمط الحياة الإنسانية كنمط اجتماعي ثقافي سياسي.
ت- أنَّها أحد أشكال العقلانية وممارساتها وهي كذلك وليدة الحداثة(تأسيس المجال العام).
ث- كونِّها تأخذ أشكالاً عينية من الوجود الاجتماعي بكافة شروطه وملابساته.
ج- تسكن البنية الاجتماعية باعتبارها مرضاً هيكلياً تطورياً، أي تتحقق بشروط تحقيق الذوات.
ح- تفرز مفاهيمنا عن الآخرين وتعيد تأكيد نفسها مع شبكة العلاقات الممتدة كتواصل وهيمنةٍ.

ولذلك رأى أكسيل هونيث أنَّه يجب انشاء سياق تعاوني cooperative context من أجل زيادة رقعة العقلانية الاجتماعية، تلك الملتحمة بأبنية الممارسة التاريخية والحياتية، وهي بذلك ممارسة غير مؤقتةٍ وفاعلة. وتهدف العقلانية الجديدة إلى تحرير الفهم ومعرفة أبعاد الظواهر بنفس منطق نشأتها، وذلك يؤدي إلى فهم أخطاء العقل وأمراضه[29].

كان سؤال هونيث المهم: ما إذا كان هناك ارتباط نسقي systematic connection بين تجارب الاحتقار الخاصة والتطور البنائي للمجتمع[30]. مما يعني أنَّ النتائج نسقية هي الأخرى وليست أفعالاً نوعية. لأنَّ ميلاد كلِّ الأفراد وكل الجماعات إنما يتم ضمن واقع نسقي لا يحترم كيانهم الإنساني جاعلاً إياهم في قبضة تفاهة سالفة الوجود. حتى أنه في ضوء المعايير من النوع الذي يشكله مبدأ المسؤولية الأخلاقية أو قيم المجتمع، يمكن تفسير خبرات عدم الاحترام الشخصية وتمثيلها على أنَّها شيء قد

---

[28] - Ibid, P 73.

[29] -Axel Honneth, Pathologies of Reason: On the Legacy of Critical Theory, translated by James Ingram and others, Columbia University Press, New York, 2009, P 28

[30] - Axel Honneth, Disrespect: The Normative Foundations of Critical Theory, P 74.

يؤثر على موضوعات أخرى. وبالتالي يشكل الوضع دائرة أوسع بمقدار تأثير الأفعال على بعضها البعض[31].

وتظل التفاهة سائرةً بهذا المنوال من اخراج الضحايا لنسقيتهم، حياتهم العمومية. ذلك من جهة الكم والكيف، لأنَّ الخلل عندئذ في آلية المجتمع وطبيعة الأفعال التي يرسخها. إذن قد تمرض المجتمعات في محدداتها التاريخية، لكون الأخيرة هي المرض ذاته إذا كانت تحمل تشوهات بنائية. وفهم هذا جيداً هو شكل المقاومة لكل تفاهة ممكنة[32]، أنْ نعرف كيف تتكون وكيف تنتشر هو أنْ نحُول دونها، فالوعي هو الشرط اليومي للنأي عن روثها الثقافي.

---

[31]- **Axel Honneth, The Struggle for Recognition :The Moral Grammar of Social Conflicts, Translated by Joel Anderson ,The MIT Press :Cambridge, Massachusetts, Polity Press 1995, P 162.**

[32]- لقد اهتم رموز النظرية النقدية أكسيل هونيث ونانسي فريزر وسيلا بن حبيب بمواصلة مسألة التحديث جريا على فكرة هابرماس(الحداثة مشروع لم يكتمل) ومن ثم كان تدعيم هذا المشروع أحد الخيارات لمقاومة الأمراض الاجتماعية. ويترتب وسيترتب على ذلك النضال من أجل سياسات الاعتراف بالآخر دونما احتقاره أو التقليل من شأنه، إذ يجب اقرار سياسات جديدة تأخذ بهذه الجوانب.

-Maurizio Passerin d'Entreves and Seyla Benhabib(editors), Habermas and the unfinished project of modernity: critical essays on The philosophical discourse of modernity, The MIT Press Cambridge, Massachusetts 1997, PP 38 - 50.

-Axel Honneth, Thomas McCarthy, Claus Offe, and Albrecht Wellmer(editors), Cultural-Political Interventions in the Unfinished Project of Enlightenment, translations by Barbara Fultner, The MIT Press, Cambridge, Massachusetts, and London, England, Massachusetts
Institute of Technology 1992, PP 17-59.

-Nancy Fraser and Axel Honneth, Redistribution or Recognition? :A Political-Philosophical Exchange, Translated by Joel Galb, James Ingram, and Christiane Wilke, VERSO: London· New York 2001.

وقبل ذلك عندما أعلن نيتشه "موت الإله"، كأنَّ أبرز أثاره الجانبية هي إمكانية انتشار التفاهة والعدم حيث خداع القيم وانهيار الحضارة وتحلل الأساطير الكبرى، وهو ما يعني موت منظومات القيم العاملة على استعباد البشر وامتصاص طاقات التمرد لصالح مثالٍ تحلُّل في ميتافيزيقاه حتى كاد أنْ يسقط كالثمار العفنة.

من ثمَّ تراهن التفاهة – ظاهرياً - على تجنب الإدانة باتساع دائرتها، لكونِّها بالنسبة لعالمنا المعاصر داخلةً في كافة ممارساته، إذ تتسلل إلى يوميات السياسة والمجتمع والاقتصاد والدين، وتنبت في حواشي الأسواق والمؤسسات والظواهر العابرة للثقافات بدرجة تجعلها لصيقةً بالحياة اليومية. واجمالاً فإنَّه منذ سقوط الميتافيزيقا بمعناها الماورائي، كانت التفاهة تترقب للتغذي على جثتها كالديدان الشرهة، وقد تناثرت عبر الأحوال ونفدت إلى الأعماق.

يعتقد الروائي إدوارد جاليانو أننا نعيش أوج عصر التفاهة حتى باتت عقود الزواج أهم من الحب، مراسم الدفن وطقوسه أهم من الميت، اللباس أهم من الجسد، قدَّاس الأحد أهم من الرب ... وهذا كله يتزامن مع ديكتاتوريات تحتاج إلى قوة الأدب كإدانة وأمل لتعري أوضاع البشر في مجتمعات مسجونةٍ[33]. المهم من هذا القول أنَّ الأولوية قد تعطى إلى خيارات معينة في ظروف ثقافية بخلاف ما هو أساسي. وليس هذا فقط، بل قد تأخذ كافة الاهتمامات اليومية، ومع ذلك تصبح ممارسةً فارغة من أي مضمونٍ.

والأبرز أنَّ التفاهة بهذا المعنى تشي بالتصنيف إذ تقف عليها قوةٌ مجهولة كبُرت أم صغرت، أي مع الإحساس بالتفاهة يقفز هناك من يقول" هذا تافه وذاك مختلف عنه ". وبالتالي ستشكل المشهد الحاصل كونِّها مؤثرةً فيما يحدث إجمالاً. ثم قد تعبر عن انحدارٍ ضمني تبعاً لنبرة إنسانية لا تخفى على القارئ. فهناك فروق بين ما نراه في سياقها وما يجعل غيرها مختلفاً.

واضح إذن أنَّ التفاهة تتلقف سلوكاً في طريقه الخطأ، أي هناك شجب أخلاقي يقطن في بنيتها، كأنَّها حادثة غير مرغوبة أو تمثل فعلاً يردد الواصفون شجبه نكاية في من قاموا به كنوعٍ من الثأر الخفي. مع أنَّ هذه المظاهر السطحية مشبعة بغرائز الإنسان ورغباته، وتتشبث بهيمنة صور المجتمعات. لأن السؤال المهم هو: أية قوة تسبب انحراف الحب- كما يقول جاليانو- في شكل أوراق تحمل أختاماً؟ مع العلم بأن

---

[33] -Eduardo Galeano , Open Veins of Latin America Five Centuries Of The Pillage 0f A Continent, Translated by Cedric Belfrage,(25th Anniversary Edition Forward by Isabel Allende), Latin America Bureau, London1997,PP 12-13.

الانحراف ليس قيمياً، لكنه مؤسسي باسم القيم والأخلاق ذاتهما. فالذي يقع في شراك الأخلاق حين ينحرف أو هكذا يترقب الواصفون سقوطه، يتبارى في القول بأنَّه لا ينشد غير الأخلاق والتمسك بها!!

وهنا يلف الصمتُ المرعب الأسباب التي تدعو للتفاهة، أي نصمت إزاء ممارسة (التّتْفِيْه) على المستوى العام. كما لو كان الفعل التافه نتيجة لفاعل جاد له حياته ومبرراته الخاصة، على الأقل بالنسبة لما يجعل سواه تافهاً. وهذا طبيعي لأنَّ بعضاً من عمل المجتمع أنْ يفرز الأنشطة لا ليضعها في خانات معيارية، إنَّما قد يُسهم اسهاماً كبيراً بإدراجها في خانة التفاهة. وإذا خطى الإنسان العمومي خطوات تجاه التفاهة، ذهبت هي إليه بالكلية. لأنَّ أسبابها قويةٌ في بنية الثقافة، كما أنَّها ليست سطحية بالمعنى الذي ينفي عنها وجوداً مؤثراً.

مع أنَّ فكرة السرعة برأي بول فيريليو فكرة خطيره في ترسيخ عمل التفاهة والتسطيح، حيث تسود قيم الطارئ والسريع والزائل والتاك أواي، وهذا ارتبط في الغرب بنشأة المدن الكبرى التي كانت رمزاً لوجود تجمعات اقتصادية وسكانية تواكب سرعات زمنية سواء في وسائل النقل أو في وسائل الترفيه أو في مؤسسات العمل والانتاج. وفي هذه المدن تبدو الشوارع كما لو كانت شواطئ لسواحل coastline عملاقة وتبدو أماكن السكن البرجوازي كما لو كانت ميناءً بحرياً sea-port نحدد من خلاله حجم التدفق الاجتماعي وتحولات العيش باتجاهات يتم التحكم فيها. وفي هذا الإطار البرجوازي تظهر العشوائيات والضواحي التي تنتشر فيها الجرائم والفوضى ومعدلات البطالة المرتفعة، ويبدو الإقصاء هو الخط الفاصل بين الشوارع والمقاهي والسيارات والأعمال اليومية وبجوار ذلك محميات العبيد والسود كما كان الحال في تاريخ في الولايات المتحدة الأمريكية[34].

معنى هذا أنَّ التهميش والإقصاء ركيزتان بالنسبة لانحدار فئات اجتماعية بأوضاعها المزرية. في مقابل فئات أخرى ترسِّخ معاني التفاهة وممارساتها، فليس الفارق بين الفئات سوى هذا التعويض الهش. وعليه سيسير هؤلاء التافهون تجاه اعلان وجودهم الممنوح مجاناً. وبالوقت نفسه سيكون المهمشون غير ذات مكانةٍ مما يجعلهم محبطين ولن يجدوا إلاَّ اجترار آمالٍ تفتقد للحياة.

هكذا تتوارى التفاهة ضمن الفئات المهملة والأساسية على السواء، وتبدو حياديةً ولا تحمل مظاهر مميزة، بحيث تقول للرائي إنَّ الأوضاع تجري كما هي لا شأن لأحد

---

[34]-Paul Virilio, Speed and Politics ,Translated by Marc Polizzotti, Semiotext(e) Foreign Agents Series, 2006 ,P33.

بها. لأن نطاق إنتاجها أكبر مما يتَّجزأ، كما أنَّ تتبعها لا يعني بالضرورة حصرها، بل أحياناً عدم القدرة على تفسيرها ومعرفة المبررات التي تزيد نموها. فمن الواضح كونَّها تفرض نفسها على المتلقي كعملٍ ملزم، وأنَّه لو كان واقعاً في السياق ذاته ما كان ليتصرف بأفضل من هذا. وبالتالي سيكون الرد الضمني على علامات التعجب - إن بدت اعتراضاً على الأشياء التافهة- أنَّه لا مجال للخروج منها.

من هذه الزاوية تكاد التفاهة تمثل " قانوناً" أو بالأدق تفرض ذاتها، كأنَّها كذلك في مسارات الثقافة، وتشغل مساحتها من التكوين مع مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية. فهنالك لا تجري الأمور بالمصادفة، لا تحدث عشوائياً ولو كانت غير واضحة الأسباب!!

وتاريخياً لا يوجد فاصلٌ بين التفاهة والأمور الجدية من الجانب الموضوعي، بمعنى أنَّ التفاهة قد لا تقل جديةً عن الممارسات الأخرى. وإلاَّ لما حظيت بالظهور المباشر في أوقات كثيرة، وربما هي الأبرز دلالة في كشف طبيعة المجتمعات ورؤاها حول الحياة اليومية. التفاهة ليست عملاً موصوفاً من الخارج، لكنها تستقر لدى ما تثيره من مشاعر السخرية. فلئن كانت الجدية تكشف قدرة المجتمعات على التطور، فالتفاهة لا تقل عن ذلك في أخذهم صوب الانحدار والبلاهة. ومن ثمَّتبدو عملاً ذا جوانب تاريخية بعيدة الجذور في وعينا اليومي. فلأنَّ هناك رواجاً لبعض الأحوال المقبولةً إجمالاً، فالتفاهة ظلال تلتّحم بالأفعال الثقافية من واقع إدارة الصراع وتباين حيوات الإنسان.

إنَّ الفلسفة حين تُولي اهتمامها بالقضية، ترصد فضاء التعبير عن التفاهة دون حجبها تحت " مظلة أخلاقية " كما أشرت. الحجب له أسبابه في ظل فلسفات لاهوتية وسياسية شمولية، لكنه لن يكون عائقاً أمام أية ظاهرة مهما يكن تصنيفها. وكمثل جميع الظواهر السلبية تصبح التفاهة سائرةً وفقاً لآليات أسياسية على صعيد الخطاب والسلوك.

بارادايم التفاهة paradigm of banality

الأن أحاول تقديم دلالة للتفاهة بحسب مفهوم متعدد الأبعاد. وتبعاً لمهمة التفلسف كإنتاج للمفاهيم برأي جيل دو لوز، لا تعد التفاهة مفهوماً تقليدياً. إذ تطرح نفسها على مفترق تناقضات ضمن الواقع المعيش، وهي ما تُلحِق بنا إساءة الفهم تجاه قضاياها، لذلك سنجعلها تؤدي ما يسميه دولوز بطرافةٍ دوراً على مسرح الفلسفة theatre of

representative structure ،وسنعتبر دلالة التفاهة بنية تمثيلية philosophy[35] تؤدي محتوى ما على المسرح. ومسرح الفلسفة يتيح لها وظائف فلسفية وإنْ كانت خارج نطاق الفلسفة حيث الثقافة.

ولكي نجهز المسرح وسيناريو العرض والإخراج، يجب التنبيه على جملة معالم فلسفية حتى تلائم دلالة التفاهة.

- هناك تفاهة نعم، ولكن ليست " ظاهرة التفاهة " تافهةً بحد ذاتها من زاوية وضعها الفلسفي، ليست تافهةً كصفةٍ لاحقةٍ لما يجري في الواقع، فالأخير يضعها ضمن إفرازه الحيوي. والتناقض(بين التفاهة ووضعها البنيوي) مهم فلسفياً، لأنَّ الوصفَ شيء والمعنى شيء آخر. المعنى شرط لأنْ توفر صفتها فرصةً للتفكير المسئول عن التناقض وتداعياته. فهي مناسبة بالتزامن مع الجدية الصارمة على الأقل تأملاً فيما يجري وارتباطاً بوضع الإنسان.
- التفاهة تضعنا حيث إثارة أفكار تواجّه ما يحدث. فلو صادفنا عملاً تافهاً أو رأيناه إعلامياً أو اجتماعياً وسياسياً، فإنَّه يستفز لدينا حاسة نقديةً. والنقد أبعد من أيِّ تلقٍ سلبي للمشهد، كأنَّه ينطوي على لوُم صامت إزاء المتسبب بالعمل وكذلك يساعدنا على فهم المناخ العام. والتفاهة تبدو وسيطاً لأشياء أخرى ترسم الصورة. لأنّ الفكر يفتح رحابة الرؤية ويعطي التفلسف مبرراً للتساؤل عن المشكلة. وحتى إذا كانت التفاهة سلوكاً، فإنَّ معناها يمس أطاراً أبعد.

المثال الأقرب أنَّه بالأنظمة المستبدة يأخذ الاستبداد أشكالاً من التفاهة الإعلامية والخطابية مثلما نتابع لدى بعض الشاشات. حيث التركيز على الكلمات الساقطة والغوغائية وافتعال المواقف والقصص الهامشية وخطابات التدجين وغياب القدرات الفنية وانتشار الدراما المكرَّرة وشيوع الإسفاف في التناول والمعالجة. هنا نجد أنَّ وجهنا العميقة تكاد تختفي بفضل السطحي والهزلي. الغريب أنَّ التفاهة تقابَل بالمكافأة(خدمات متبادلة) كالأجور الخرافية للفنانين ومقدمي البرامج ومؤلفي الدراما. رغم إدراكهم أنَّهم يقدمون شيئاً غثاً ولذلك اختاروا الطريق الأسهل للثراء بهذه الفنون في حين يستعمل مدبرو السياسات الصور السابقة لتدعيم سلطتهم.

- وإذا كانت التفاهات سلسلة من التكرار، فهي دعوة لاعتبار نتاجها رؤية عامة. وذلك انطلاقاً من تقرير معاييرها الضمنية، مثل الاستسهال والمساومة وضعف القدرات وقبول الأمر الواقع والأهم انتزاع الرضا الشعبي الذي يبطل مفعول أية

---

[35]- Gilles Deleuze, Desert Islands and Other Texts 1953-1974 , Semiotext(e) The MIT Press, Cambridge, Mass. and London, England 2007, P 144.

إرادة للتغيير. مما يخلق أجواءً للابتذال التي لن تيقف عند حدود بعينها بقدر ما تشكل مواقف فاعلين لاحقين.

- صحيح تنطوي التفاهة على جانب توظيفي بواسطة ممارساتها العامة، لكن تصبح تبعاتها بهذا الإطار في جانب بينما هناك سلطة تجيد استعمالها في جانب آخر. ويفترض ذلك أنْ تكون السلطة على دراية بما تصنع، لكن لا ينفي هذا بالتبعية كونَّها ظاهرة إنسانية. فالكائن القادر على صناعة الحياة هو نفسه يقدر أن يكون تافهاً. ومثلما يكون جاداً، قد يلوذ بالتفاهة من مسؤولية الابداع والحرية.
- الخطورة تكمُن في كون التفاهة تبتلِّع ممارسات تاليةً، فبالإمكان أنْ تستقطب زبائن جُدداً. والفكرة أنَّ الاعتياد عليها يخفي (أو تخفي هي) ما سواها، لأنَّها قابلة دوماً للتبرير والتّزيُد، وتؤلف معاييرها الخاصة بوصفها موضوعية بخلاف زيفها. فالتافهون ينهمكون بأعمالهم التافهة كأنهم يؤدون رسالة مقدسة. حيث تتشبث كل تفاهة بثقافتها وحيلها في الحياة، وتربط أصحابَّها بفئات تتخذها وسيلة للتكَّسب واحتلال المناصب وخدمة السلطة القائمة.
- لا حدود هناك للتفاهة بحكم ضياع المعايير التي تقلص وجودها، فلا تتوقف عند مجالات دون غيرها، هي تكمل بعضها البعض وإنْ اختلف السياق. هذا من واقع الحياة التي تشهدها، فهي نافذة التأثير في البيئة التي تسمح بها. أنْ يكون أحدهم تافهاً ليس شرطاً ضرورياً حتى يصبح كذلك، بل الشرط هو وجود بنية أشمل تفرز نماذجها التي تتوالد كالبكتيريا في مواقع محددة. لأن العدوى والاستسهال هما المساران اللذان ينشطَّان فاعليها.

هناك عدة معالم للتفاهة في هذه الوضعية: قائمة على طرح التفاهة كمعطى حياتي له جذوره واستعمالاته وأبنيته الثقافية(السياق ما بعد الحداثي الرأسمالي الذي شهد تلك الظاهرة). وتلك المعالم تكتسب زخماً ببلورة وجودها العام ضمن مجتمعات أو غيرها، وتطرح نموذجاً مفترضاً لطبيعة التفاهة(بارادايمparadigm). إنَّ هذا الوضع يقتضي(تفريغ الإنسان من معانيه)، حشده وانقياده في القطيع البشري (الأدنى والأعلى)، تعرية حياته(أو تغطيته رمزياً تحت الفئات الأعلى)، استعماله (لأغراض ومصالح القوى المهيمنة).

1- الظهور appearance (الحدوث كما هي). وخاصةً أنَّ التفاهة بها جانب نسفي كما نوّهت، وعليه سيكون من طبيعة النظام دفعها على السطح. وتكاد تمثل الطبقة المتجلطة التي يصعب تذويبها. والظهور كما سنرى هو كل إمكانيات التفاهة في لفت الأنظار إلى رواجها.

المهم أنَّ الظهور يصبح خطاباً بكل ملابساته وشفراته الضمنية، فالتفاهة لغة تصمت بقدر ما تجسد حالة اجتماعية وسياسيةً. وبالطبع تقبع تحت المظهر عوامل

متعلقة بالسلطة والتكوين التاريخي لها. ففي الظهور هناك ما هو خفي إلى درجة الاستحالة. الظهور دوما عملية تجلٍ وهذا يتفق مع طبيعتها، لكنه ليس تجلياً لوضع بسيطٍ(كما سنعرف لاحقاً).

2- استنفاد الضروري(التآكل الثقافي – أفول العقل) غلبة الهامشي ورواجه (أي الهدر الفكري). حيث تنحرف الفئات إلى التهام الأسس عبر نمط الثقافة. وليست التفاهة قوة، لكونها متلونة ومتحولة، كما أنها لا تلوي على أي مضمون فعلي. السبب واضح أنها بلغة الطب تسرطن محتويات الحياة، وتفيرس جسدَ الممارسات التي ينبغي أنْ تسير في الطريق الصحيح. أي أنَّها تعيش على أنشطة أخرى كان يجب أن تزيحها جانباً.

ولهذا التآكل صور كثيرة، فقد يكون بغلبة الأفكار الساذجة في المجتمعات. مثل انتشار القضايا التي تحدث كساداً في المناخ السياسي. هل هذه الشخصيات اسهمت في الحياة السياسة أم لا؟ هل من بطلٍ منقذ للمجتمعات الفاشلة؟ هكذا قد ينشغل الجمهور بهذا السؤال، مع أنَّه ينبغي للحياة السياسية أنْ تشيَّد وفق معايير لا شخصيات. وتلك الأسئلة هامشية تفشل الأفكار الخصبة، وهكذا تأتي التفاهة بمثابة العملة النقدية الرائجة، لأنَّها تُتخذ كطريق خلفي للمآرب.

وفي الفنون الجماهيرية تحضر التفاهات حيث يلعب المظهر دوراً رئيساً. وتحت عنوان الرواج الشائع، تصبح مقاييس الأعمال متدنية، وتسود نبرة السرعة التي تخطف الانظار وتشكل الرؤى. إن قدرات الأفراد تتحدد بهذا الوضع حتى أنّ خروجاً عنها يقابله المستفيدون بمواقف غاضبة.

3- قابلية التكرار(بقدر معاودة الظهور التافه في الأنشطة الحياتية)، التفاهة ليست أكثر من عملية تكرار، أي تكّرر نفسها بصورة لا تُمل ولا تتوقف. وحتى على الصعيد اليومي، فإنها تلجأ إلى آلية التكرار النسبي، لأنها آلية تضمن استمرار أوضاعاً بعينها. من هنا تتواصل عملية الانقياد لهؤلاء التافهين وبخاصة النخب التي تمارس دوراً كهذا بشكل تلقائيٍ.

ومع التكرار سيكون هدف كل تفاهة هو تعميم النمط. ليس ثمة تافهون إلاَّ ويريدون ايجاد بدائل بأعمال مشابهة. ولربما اقصر الطرق إلى ذلك هو العود على بدء، لدرجة تكريس الالفاظ والعبارات والأفعال نفسها. مما يقوي وجود النمط الغالب الذي يجتاح جوانب الحياة اعتماداً على ذخيرة الثقافة.

وَبشكل أوسع فإن مظاهر التدني هي نتاج التكرار كوضع مألوفٍ. وقد يُصدّم متابعو التدني مؤقتاً، لكن التكرار فعل تبرير مكتفٍ بنفسه. فالصدود وعدم القبول

يأخذان في التلاشي ما إنْ نواصل المتابعة. وبذلك تصبح أشياء مثل: السقوط في السطحية، البذاءة، التلوث الثقافي، غياب الوعي، انتشار السذاجة، الهروب من الحياة، أشياء معتادة.

التكرار يقول: فليكن هناك أمور عامة عليها أن تكون مقبولةً ومعممّة بدرجة كبيرة. وليس هذا فقط بل يصبح تعميمها هو مبرر القبول الواجب أنْ يكون. ولهذا تغدو أيُّو تفاهة حاملة لقدرتها على المعاودة ثانية. التكرار -كما يعبر جيل دولوز في كتابه "الاختلاف والتكرار"- لا يغير شيئاً في الموضوعات المكرّرة repeated، بل يغير شيئاً في العقول الذي تفكر فيه وتتقبله[36]. وهذا حقيقي لدرجة أنَّ موضوعات مرفُوضة في سياقات بعينها تغدو مقبولَّة بكل سهولةٍ حين يتم طرحها في سياقات أخرى. ويبدو ذلك مرهونا بالتعود على الحالات المتتابعة.

والأبعد تأثيراً أن التكرار ليس عملاً خاصاً إنما يحمل دلالته الجمعية، أي على نطاق أشمل. ولذلك دوماً التفاهة تغرى بمثيلاتها من الأعمال على منوالها. وارتباطاً بالظهور سيكون التكرار خلق واقع بديل في دائرة الفضاء العام.

4- سلطة الرغبة حيث تتلخص في الصورة، وهي القدرة على الاستعراض. وكما يقول دولوز إنَّ تاريخ الرغبة هو تاريخ اللعنة. لكن ما هو الملعون في تلك الرغبة؟ إنَّه جانب الظهور الذي يبلغ الانكشاف والتحقق دون تباطؤ. والتفاهة هي رغبة في لعنة الاشباع المزدوج(الفعل ورد الفعل). ليس من تافهين لا يطلبون المزيد وبالوقت نفسه يريدون رضى الآخرين. فالتافه لا يشبع إطلاقاً، هناك نزوعه نحو الكل، أي يريد وضع الكل في خانته التي يعيها جيداً. وإذا كانت التفاهة لها جانب تداولي من حيث ثقافة الهدر الفكري، فهي تطلب المكانة المعترف بها، وتظل تدافع عن وجودها حتى الرمق الأخير.

إنَّ فرض الأمر الواقع هو لعنة أي ظهور ممكن. لأنَّ الاعتراف بها ليس كما يتم كأننا نعترف بكيان مهمل أو بحقيقة غائبة. بل يأتي في شكلها المعتاد وقد عقدت العزم على طلب الأكثر، هنا التفاهة بمثابة ترويض الكائن الإنساني لكيلا يكون له قوام ولا قدرة على التميُز. ولذلك نجد رغبة التَّافِه رغبةً فيما يريد، وهو بذلك يُوهم نفسه في شكل الفاعل، رغم أنَّه في صيغة الرغبة، كائن راغب ناقص باستمرار.

وغالباً ما تأخذ التفاهة موقعها من الرغبات المشتركة بملء الكلمة. لكن: هل معنى ذلك أن هناك رغبة في التفاهة؟ ليس هذا بالتحديد، بل هناك رغبة في الاشباع

---

[36] -Gills Delueze, Difference and Repitition, Translated by Paul Patton, Columbia University Press, New York, 1994. P70.

الخاطف لحاجات غير أساسية في شكل تفاهة، أي أنَّ الأخيرة باعتبارها ثقافة وطريقة ظهور تلبي رغبات غير ضرورية لأجل الاستحواذ والهيمنة. هي تنتمي إلى غرائز الجُموع بما هي رواج بلا سقف، وكذلك تتطلع إلى الحضور المخاتل كأنه الحقيقي ولا شيء سواه.

وهكذا فإنَّ جزءاً من الرغبة هو الانحراف التافه للأشياء، فهي تمثل توجُهاً صوب هذا الجانب. إذا أردنا توضيحاً، فالتافِه لا يلتزم عادة بما يحقق غايات كلية متاحة للإنسانية في كيان الأشخاص، إنَّما هناك نهم التملك والغلبة والاستحواذ بأي ذريعة وبالتالي يتجنب أي شيء نشداناً لأهدافه. إنه في هذا يسلك الطرق القصيرة التي تتلاعب بالمبادئ والقواعد.

إنَّ الرغبات لا تسلك طريق المبادي ولا تدركها، بل هي عمل حسي شهوي بامتياز يتمظهر رمزياً. ولذلك فالتفاهة انحراف المبادئ في شكل رغبة، كأنها تقلب أوضاع العقل إلى غريزة بلوغاً لما تريد. ومن هنا يتشبث الشخص التافِه بكل رغبة يستهدف إشباعها. والاشباع لا يرتوي إطلاقاً، كما أنه يحدث فوضى التفاهات لأنها في البُعد الآخر تمثل وسيطاً للسلطة. ولذلك تعتبر التفاهة ممارسة تعطي ولاءها غير المعلن للتلاعب بغايات المجتمع ومستقبله.

5- التكوين المضاعف، فالتفاهة سطحية ... نعم، ولكنها عميقة بالطريقة نفسها. أي فلسفياً تجعل غايتها تسطيح العمق وتعميق السطح في حركة بندولية لا تهدأ. لأنَّ هناك وعياً بما تفعل، فلا تفاهة بالمصادفة الصرف إلاَّ بصدد الجماهير التي تمضغ التفاهات حين لا يوجد غيرها. بينما التفاهة عند مستوى الانتاج الثقافي (التفاهة كوعي بالتلاعب والتزييف والانحراف) تشكل تكويناً مضاعفاً بالممارسة. ولا سيما في الأنظمة السياسية التي تستعملها لتسوس الجُموع.

والتكوين المضاعف ليس سمة بالمعنى العادي، لكنه تحول ثقافي في طريقتنا لرؤية الحياة والعالم. لأنَّ تكراراً للتفاهات يُراكِّم تصوراتها لدينا عند درجة الذروة التي يصعب التخلص منها. والأبرز أنَّ التفاهة بحكم تبرير ذاتها لا تسمح بالخروج من أي إطار تجري خلاله. وفي حالة وجود السلطة أو القوة الاجتماعية والسياسية التي تستعملها، تصبح التفاهة (وسيلة وبديلاً) بالوقت نفسه. هناك تكوين انطلاقاً من السلطة إلى الموضوعات التي تريد السيطرة عليها وقد تنطلق أيضاً من الموضوعات إلى السلطة(دائرة الإحالة).

تلك الدائرة تُرسم في حدود المجتمعات وهي ما تكَّون جانباً رمزياً للتفاهة. لأنَّ السلطة الرائجة تغلق ثغراتها كأنها أسرار، وربما تغفل عنها ولا تقترب منها شكلياً. ولممارسة هذا العمل تُفسح المجال لرمزية التفاهة، إذ تستمد منها دلالة لتدعيم نفسها

بحكم أنَّ كل تفاهة تخدم سيطرتها بعيدة الأجل، والتفاهة تتمم الجانب الآخر الدال على الحاجة إلى السلطة. فالتافه نظراً لكونه عاجزاً عن العيش بمقوماته الذاتية، فإنَّه يلتصق بسلطةٍ ما متحولاً تحول العرض مع الجوهر(أي السلطة ضرورة تستدعيه).

ويصل الأمر في الواقع إلى تعقيد التفاهة حتى إذا أردنا فهمها ستكون السلطة أول من يلوى عنق الأمور ليصعُب الوصول إليها. ومن صميم التكوين المضاعف أنَّ التفاهة وسيلة ربط لتكوين المجتمع بكيفية صياغة رؤى الحياة وإدارتها. لأنَّ هذه الرؤى وتلك الإدارة لا تخلوان منها ممارسة إنسانية. والتفاهة في هذا تشوّه هذه الجوانب بما يخدم منطلقاتها. فهل التافه لها موقف واضح وناضج من الحياة؟!

6- الوضعُ الخادع، حيث يكون الاشباع الناتج عن التفاهة شكلّياً. وهذا الشيء ناتج عن الشعور بالحضور في المجال العام، وفي الوقت نفسه يتمُّ الأمر كأنَّه اعتراف بأصحابه. والخداع لون من الازدواج بين (خداع الآخرين وخداع الذات)، الاثنان لا ينفصلان. أما ما يدعم ذلك، فهي حالة الرواج التي تحدُث أمام الأنظار.

وبخاصة إذا كانت للتفاهة آثار تجدد مردودها المؤثر، حينئذ يظن الإنسان أن ذلك أمر حقيقي بدليل آثار الفعل. وتلك الفكرة تدفع التافهين للتكالب على دوائر القرار والأضواء. إن وجودهم يبدو بتلك المناطق واضحاً رغم أنَّ تكوينهم رمادي حتى النخاع. فهم كائنات تعيش في الظل، مكونة من ظلال باهتة، لكن مواقع الأضواء تكسبهم تماسكاً براقاً بصيغة(كأنَّ الصورة قاطعة الدلالة).

الصورة البراقة هي كل المشهد ولا يهم إنْ كانت حقيقية أم لا!! هذا من جهة الدلالة المباشرة. أما الزوايا الأخرى، فالتفاهة تستند إلى كم مهول من المراوغة وتتحين الفرص للطفو، وتعزز مكانتها باستدعاء مخزونها البصري لدى المتابعين حين تنال قبولاً في مثل هذه الأوقات.

ولذلك تُراوغ التفاهة وتدعم أركانها صراعاً في حياتها العامة، لأن دائرة الأضواء – من وجهة نظر التافهين- لا تتسع للجميع. فليست هناك أية معركة سوى الظهور وما يؤدي إليه من نتائج. وهذا يرتبط بطبيعة العيش التي تؤكد هذا الوضع. وهو ما يُعرف بالشهرة في ثقافة التعرية غير المعنية بالأجساد فقط، أنَّما بالعقول والمشاعر والفكر. حتى أن الفساد على سبيل التوضيح يُستخدم في هذا الإطار، لأنَّه يحتاج إلى تربة التفاهة كي تتيح انتشاره. وكأنَّ الموضوع نوع من العدوى المرضية في بيئة خصبة لانتشار الامراض.

الأمر نفسه مع البيئات الحاضنة للإرهاب والتطرف، حيث يظهر في بيئات خاملة وبواسطة عقول تنشغل بتوافه الأفكار. فالتفاهة هي حاشية كل إرهاب بعيد

الجذور، لأنَّه نوع من الاستحواذ الفكري والهوس بالعنف. وهذان لا ينبتان إلاَّ على أرض مليئة بعقول ضعيفة الفهم. وتبدأ اللعبة ببعض الأمور المتشدد التي لا شأن لها بالجدية مثل الزي أو الطعام أو الشكل، ثم تنقلب التفاهة المتطرفة إلى قناع يخوض في إراقة الدماء. ولنلاحظ أنْ انتشار تفاهات الحياة اليومية يتزامن مع الرأسمالية المعولمة بنمطها الاستهلاكي ومع ظواهر التدين الشكلي وبجانب ديكتاتوريات عنيفة سببت حروباً وعمليات تطهير عرقي وإعادة ترسيم حدود النفوذ. ذلك كله ينبني على ثقافة التفاهة التي تمسخ الحرية وأصالة الفكر.

7- التفاهة معنى(أي ترتبط بالمعاني كأنَّها الأهم)، ولكنها بالوقت نفسه هي انتاج اللامعنى، تمييع التصورات الجمعية الكبرى التي تحسِّن نمط العيش.

ولذلك تأتي التفاهة في شكل مُودات modes وشعارات mottos عابرة للأجيال، أي تطرح وجودها ثقافياً بحكم ظروف العصر، لكنها تتعمق مع إضفاء المعاني على المواقف. ففي حالة الشباب قد يرتبطون بمظاهر التمرد والتعبير عن القوة. وبالتالي يلجئون إلى وشوم وعلامات تافهة تعبيراً عن ذلك مثل الرسوم والسلوكيات الناقلة لمعاني الحرية والرفض.

ويدل المعنى على الفعل كشفاً: لماذا يحدث وبأية وسيلة وفي أية سياق يجري؟ فالمعنى ليس فقط أنْ يعيش فيه الإنسان، لكنه يفكر مع المتابع ويضعه على مفترق طرق. إنَّه الكلام البعيد للتفاهة، ما تثيره لدى الإنسان من دوافع وغايات عليه الجري وراءها. فالتافه يستحضر لدى مشاهديه معاني الحياة لأجل المنافع.

اختصاراً لتلك الأبعاد السابقة، فإنَّ التفاهة صناعة وثقافة لتفريغ البشر من طاقاتهم الفاعلة وجعلهم وسيلة بوعي أو دونه. وبفضل الظهور والتكرار تستهدف تمييع القدرات لأغراض السيطرة. وهنا تنمو ألعاب السلطة والقوى الغالبة. حيث تحدد: أطر التفاهة وطبيعتها وماذا يمكن أنْ يحدث لها وكيف تحل محل الضروري(حالة الأنومي عند دوركايم). حيث تسود اللامعايير التي تضرب المناخ العام. وقد لا يخرج عن ذلك أيُّ مجال، إذ تستعمل الاساليب والتصورات نفسها في اجتذاب الزبائن!!

التَّفاهةُ والظُّهور

العلاقة بين التفاهة والظهور appearance علاقة عضوية، لا توجد سرّاً إنَّما تعلِّن نفسها كسلعةٍ معروضة قابلة للرواج. وإذا كانت تجليات التفاهة ظاهرةً في المجتمعات الراهنة، فتعد مشهداً من الأسواق العابرة. تحفظ وتعري، تغطي وتنتهك جوانب حياتنا. لقد أصبحت فرصة لاستعمال رأسمال السياسة بدرجة أقوى، مثل حيل

التلاعب بالعقول وتقليص قدرات التغيير والتحكم في العلاقات. ولذلك تبرُز التفاهة جانبها الشامل تعويلاً على أدنى الأسباب والمظاهر.

في ظل ثورة وسائط الاتصال تلتحم التفاهة رمزياً ببيولوجيا الإنسان ككائن يُشابه ما يفعل. فيتحول إلى خلق صور من أهوائه ورغباته الدفينة بقدر ما يستطيع من تصوير، كأنَّه أحد الشخصيات الافتراضية التي تُمحى وتتلاشى. وجرَّاء التنوع المذهل للثرثرة والطرائف وأشكال التهكم بات الانهماك في التوافه أحد مشاغلنا التي تستغرق أوقاتاً، حتى امتدت بشكل صارم إلى مواقع لم تكن لتطؤها من قبل.

التفاهة كظهور هي سمة عصر- كما أشرت- له جذوره وتداعياته، وهو ما يطلق عليه الفيلسوف الفرنسي اليوناني الأصل كرونيليوس كاستورياديس Cornelius Castoriadis المد الصاعد للتفاهة The Rising Tide of Insignificancy، وبعنوان فرعي مغرٍ(النوم الكبير) the big sleep، حيث يرى أنَّ الظهور عملية مركبة ومعقدة. فالمجتمع، أي مجتمع، لا يمكن اختزال حركيته في الصراعات ذات الأساس الاقتصادي فقط، بل إنَّ مجتمعاً بقدر ما تسوده علاقات القوة المبنيَّة على نمط إدارة المصالح الاقتصادية وتوجيهها تسوده وبالقوة نفسها علاقات المعنى، كما أنَّ رهانات الصراع الاجتماعي لا تستهدف المصالح الاقتصادية وحسب، بل أنماط الشرعية والسلوك[37].

وبالتحديد يعتقد كاستورياديس: إنّ ما يميّز العالم المعاصر، هي الأزمات، والتناقضات، والمعارضات، والانكسارات والهزائم وغيرها ... ولكن ما يصدمنا بشكل خاصّ، هو التفاهة الآخذة في البروز من مرحلةٍ إلى أخرى. لنتناول مثلاً النزاعات الفارغة التي تغطي أقاليم العالم، مثل نزاع اليمين واليسار ونزاع الدول ونزاع الأحزاب ونزاع الطوائف. جميعها تتقيأ ما في جوفها من تفاهات لا تنتهي. ولقد امتد الصراع في شكل صناعة الفراغ vacuum industry وانتشار الديماجوجية وانفجار الجماهير والجهل المُروّع والوقاحة في أعلى المستويات بطريقة تعوق التغيير نحو الأفضل[38].

ومن ثمَّ لن تغادر التفاهة بسهولةٍ أيَّة مساحة تكسبها، إذ تستطيع الظهور من حيث لا نتوقع. تمثل أقرب مسافة كخط واهٍ بيننا وبين العالم وأحداثه، عقب لحظة وأخرى ستواجهنا مراراً أمام فعلٍ أو حادثةٍ أو صورة أو دلالة تابعة لها. وهي أيضاً تعبر عن

---

[37] - Cornelius Castoriadis, The Rising Tide of Insignificancy, (The Big Sleep), translated from the French and edited anonymously as a public service, 1999, P 3.

[38]- Ibid, PP 4-5.

نفسها بأشكال عملية ولا سيما في الإعلام والسياسة. فالإنسان صانع التفاهات بقدر ما هو صانع المعجزات، وحتى تلك الأخيرة قد تتحول بدورها إلى سخافةٍ دون مفرٍ. إنّ العولمة رغم أنَّها تمثل سيولة الاتصال إلاَّ أنها كرست اجابة للسؤال البسيط: كيف تكون تافهاً؟، حتى غدت الأحداث تنال قدراً كبيراً من التغطية، مما جعل التافهين يفتعلوا أية أحداث تحت دائرة الضوء.

هناك ملايين الأحداث اليومية التافهة تستثمر قوة الظهور تحت الأسماع والأبصار والأصابع اللامسة إلكترونياً، لتترك زحاماً في وسائط الإتصال بفتح فراغات داخل الوعي والأخبار المتداولة. وقد دفع وضعٌ كهذا إلى التعلُّق بالهامشي وغدا هناك انشغالٌ بتلك الأمور. واستكمالاً لفكرة سابقة، كانت التوافه التواصلية هي انتاج الظهور كممارسة مسيَّسة في أغلبها. هناك بصمات ممحوة خلالها تاركة الباقي منها يشغل وعينا من حين لآخر. ونحن المستهدفون من وراء هذا: أن نتشارك هذا الحاضر، أن نظهر كما يمارس الظهور استمراريته... ونحن الضمان لذلك[39].

لنضرب مثلاً بظاهرة "الذباب الإلكتروني" electronic flies. يقول الفيلسوف الإيطالي امبرتو إيكو: إنَّ مواقع التواصل الاجتماعي تمنَّحُ حق الكلام لجحافل من الحمقى والتافهين legions of idiots، لقد كانوا في الماضي يتكلمون داخل البارات والحانات فقط وهم سكارى دون أنْ يتسببوا بأي ضرر للمجتمع وكان يتم إسكاتهم فوراً. أمَّا الآن فأصبح لهم الحق بالكلام مثلهم مثل حاملي جوائز نوبل للعلوم والفنون والآداب... إنَّه غزو البلهاء invasion of the idiots. ودوماً يتحدث ايكو عن الثقافة الجماهيرية كأنَّه يتحدث عن نهاية العالم المؤجلة mass Culture: Apocalypse Postponed، لكونَّها متفجرة وعمومية، كما أنَّها تزلزل المشهد الحيوي في الحياة لأقل الأسباب، فالثقافة الجماهيرية مليئة بنعرات معادية للثقافة anti-culture .. إنَّها علامة الخسارة التي لا تعوض. وبالتالي لا يجد رجل الثقافة الحقيقي(المفترض انقراضه منذ ما قبل التاريخ) ما يفعله سوى الشهادة الفظيعة عما يحدث[40].

---

[39]- ذلك يشبه فكرة الاستحمار الالكتروني وهي" الاستعمال السطحي للفضاء الإلكتروني والخضوع للمستخدمين والمسيطرين على هذا الفضاء، فيصبح الناس مجرد أرقام وأفراد مستحمرين".
نديم منصوري، الاستحمار الإلكتروني، منتدى المعارف للنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان الطبعة الأولى 2016، ص 31.

[40]- Umberto Eco, Apocalypse Postponed, Edited by Robert Lumley, Indiana University Press

ومن جنس نهاية العالم يطفح كل ما هو شعبوي مبتذل، فالذباب الإلكتروني هو مقولة في صناعة الرأي العام بشكل مزَّيف، حيث ارتبط بتلك الظاهرة لوصف الحسابات المزورة على مواقع التواصل الاجتماعي، والتي عادة ما يكون هدفُها هدفاً سياسيًا صرفاً، وفي هذا تُستخدّم فكرة اللجان الالكترونية لِذات المعنى، وهي شبكة بين مجموعة من الأشخاص أو من المنظمات الإلكترونية العاملة على دفع الرأي العام إلى توجه معين سواء أكان فكراً أم معتقداً منافياً للحقيقي. وتعتبر اللجان إلكترونية إحدى أدوات حروب الإنترنت مع سلطة الشبكات الاجتماعية الافتراضية، حيث تقوم مجموعات بإنشاء حسابات كثيرة على مواقع التواصل الاجتماعي لتغيير آراء المتصفحين حول قضايا معينة.

ويُفترض لنشاط الذباب الإلكتروني شيئان، أحدهما: أنَّ ثمة مُناخاً من التجهيل واسع التداول وله مفعول السحر في بذر وانبات ما يريد القائمون عليه، فالذباب لا ينتشر ضمن مجتمعات الشفافية، إنما في ثقافة الحجب والتعمية والحجر وأنْ تصبح التفاهة سمة الذكاء الأولى ومحرك الجدل حول قضايا حيوية. ثانيهما: قلة الوعي وقابلية الجماهير للانخداع. فالقابلية للتصديق قد تكون مجاناً ويندرج فيها أيُّ موضوع دون تحليل. والشيئان قد يدعمان انظمة شمولية تحارب العقلانية وتبث الخوف وتعتبر الجهلاء خبراء في معظم القضايا.

تزداد رقعة استعمال مصطلح الذباب أثناء الأزمات السياسية بين الدول، لكنّه ظهر قبل ذلك بكثير مع فكرة الإشاعة ودورها في تغيير الآراء. إجمالاً، لأن الذباب الإلكتروني يُنشئ كماً من الحسابات الآلية المبرمجة على عرض منشورات أو تغريدات مُعيّنة بصورة متكررة. وذلك بهدف التأثير في الرأي أو جلب الانتباه إلى فكرة ما مُقابل تهميش أخرى أكثر أهمية. وتعتمدُ الحسابات الوهمية على أكواد برمجية تصبح سهلة في بعض الأحيان فيما تزداد صعوبة بحسب نوع المهمة المكلفة بها. فالكود البرمجي الخاص بحساب آلي يقوم بإعادة التغريد على منصة تويتر مثلا أسهلُ بكثير من الكود البرمجي الذي يدفع بمجموعة حسابات آلية إلى التغريد من تلقاء نفسها[41].

,Bloomington and Indianapolis, British Film Institute, London, 1994, PP17- 18

[41] - راجع الويكيبيديا (الذباب الإلكتروني) على الرابط التالي:
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B0%D8%A8%D8%A7%D8%A8_%D8%A5%D9%84%D9%83%D8%AA%D8%B1%D9%88%D9%86%D9%8A

ومن قبيل التفاهة أنْ تنشغل الجماهير بجاذبية الصور الشائعة. ولذلك تُراهن التفاهة على المساحة المرئية من نفسها. حتى أن التغريدات الالكترونية هي كل العالم، هي كل الحقيقة. وذلك لا ينفصل من وجهة نظر إيكو عن روح ما بعد الحداثة باعتبارها عصر الموالفة والتخليط bricolage كحال التقنيات والفنون[42].

وبالعودة إلى كاستورياديس، يري أنَّ ذلك التخليط جزءٌ من إفلاس المفاهيم الموروثة bankruptcy of the inherited conceptions (سواء المنتمية إلى الماركسيين أو الليبراليين) مما أدي إلى نشر السخافات كمعادل موضوعي في حركة الواقع[43]. وبخاصة أنَّ ما يبدو اجتماعياً جزئياً يمكن أن يخرج من هذا النطاق بحكم بنية الحداثة التي رسخت الأوضاع العامة للدولة والمجتمع، بل ما هو كوني الآن كان في يوم من الأيام أمراً خاصاً: ضمن علاقات التراتُب والفئوية[44].

إنَّ السخافات والتفاهة يقعان في دائرة واحدة، بل ربما يتبادلان الدلالة على نحو قوي. ولكن الاختلاف أنَّ السخافة تعطى التفاهة طعماً لاذعاً، فقد تكون التفاهة عاطلة عن الدلالة المباشرة بحكم خمول المناخ الثقافي. وأنَّ غالبية الناس يمارسون تفاهاتهم بشكل ضمني، لكن السخافة لا تمرُق بسهولة بجوار أسماعنا وأمام أبصارنا. السخافات دوماً تفاهات فاقعة إلى درجة الوقاحة. فبالإمكان ألاَّ تكون التفاهة وقحةً، لكن لا تفلت السخافةُ من تلك السمة.

ويشير كاستورياديس أنَّ السخافة نتاج يصعب تجنبُه لانهيار الأنظمة الكبرى على صعيد الأيديولوجيات والسياسة والفكر. إنَّها أشبه بالمجرات الكونية التي تشظَّت وتناثرت في الهواء، ولم يعد ممكناً جمعها. الهواء الآن هو الفضاء التواصلي الذي احتمل هذه الشظايا من الأوهام والأفعال السخيفة. وتبلغ نكاية انهيار المذاهب الفلسفية

---

[42] -Norma Bouchard, Eco and popular culture, In: Peter Bondanell (editor) , New essays on Umberto Eco, Cambridge University Press, New York 2009 , P 13.

[43] - Cornelius Castoriadis, The Rising Tide of Insignificancy, (The Big Sleep), P126.

[44] - Cornelus C astoriadis Political And Social Writings, Translated And Edited by David Ames Curtis, Volume 3, 1961-1979: Recommencing the Revolution: From Socialism to the Autonomous Society, University of Minnesota Press, Minneapolis, London University of Minnesota Press, Minneapolis, London 1993, P 216.

أنْ تورْط فلاسفة كبار مثل هيدجر في الدفاع عن النازية ولو بشكل عفوي، وكذلك ظهور الفلاسفة الماركسيين الذين دافعوا عن الماركسية التقليدية. هؤلاء وأولئك قد تركوا أفكارهم في عراء المركزيات وشظف الفكر عندما حدث الانهيار[45].

إنَّ الجيف عندما تتحلل لا ندري من أين تظهر ديدان الجثث ولا كيف تمخر في أحشائها. التفاهة تسكن الأحشاء القوية التي كانت قادرة على هضم الواقع، وهي الآن تزحف من أية ثقوب جسدية، حتى تتحلل جثث المجتمعات وحيواتها العامة. وهذا العراء الذي لا حدود له هو مكب للنفايات والتوافه، حتى أننا لا نمر بها مرور الكرام دون أنْ تعلق بنا، وهنا خاصية ضرورية لكل تفاهة: كونِّها قابلة لأن تعلق بآخرين. ولذلك هي تورطنا في مواقف تجاهها(مع أو ضد). وقد يكون الاثنين لأنَّ التفاهة تشكلت مع ظروف عصر بأكمله ولا حلَّ للإنسان من العيش معها. وفي هذا الحال مع ركود الحياة وانتشار البطالة والتراجع السياسي تكون المجتمعات غير مباليةٍ apathetic[46].

وليست اللامبالاة من وجهة نظر كاستورياديس وليدة الصدفة إنما يوجد هناك نوع من الإجماع الزائف المعمَّم generalized pseudoconsensus بسهولة على أشياء معينةٍ تجتاح المجتمعات الراهنة، وهي حالات يتوافق عليها الناس خلال ممارسات الحياة مثل القبول بالأوضاع السياسية المزرية أو بصورة سلبية للعلاقات بين الأفراد مما يسبب الانحطاط والتدهور. وهناك أيضاً نوع من التواطؤ الذي يترك طابعه على هذا الاجماع، لدرجة أنَّ كل شيء يجري كوسيط: شبكات من التواطؤ هي تقريبا لها سمات قاهرة وغالبة. everything is mediatized; the networks of complicity are almost omnipotent.
إنَّ الإجماع الزائف والتواطؤ يتفاعلان في مجتمعات لديها قوة لخنق أي اختلاف حقيقي سواء عن طريق إسكاته أوإدماجه في ظاهرة واحدةٍ أو يتم تسويقَّه مثل مواقف الآخرين[47].

من زاوية مغايرةٍ، يتحدث الروائي ميلان كونديراً عن قيمة التفاهة ضمن روايته " حفلة التفاهة" على لسان رامون احد الشخصيات الرئيسة مُحاوراً صديقه رادرديلو، يقول كونديرا: " تتبدى لي التفاهة الآن تحت ضوء مختلف تماماً عن ذلك الحين، إنها تحت نور أسطع وأكثر كشفاً. التفاهة يا صديقي هي جوهر الوجود. إنَّها معنا على

---

[45] - Cornelius Castoriadis, The Rising Tide of Insignificancy, (The Big Sleep), P 128.
[46]- Ibid, P 132.
[47] - Cornelius Castoriadis, The Rising Tide of Insignificancy, (The Big Sleep), P 129- 131.

الدوام وفي كل مكان. إنَّها حاضرة حتى في المكان الذي لا يرغب أحد برؤيتها فيه: في الفظائع، في المعارك، في أسوأ المصائب. وهذا غالباً ما يتطلب شجاعة للتعرف عليها في ظروف دراماتيكية للغاية ولتسميتها باسمها، ولكن ليس المقصود التعرف عليها فقط، إنَّما يجب أنْ نحبها، التفاهة، يجب أنْ نتعلم حبها. هنا في هذه الحديقة أمامنا، أنظر يا صديقي، إنَّها حاضرة بكلِّ بداهتها، بكل براءتها وبكل جمالها. أجل جمالها، وكما قلت أنت نفسك، الحيوية الكاملة ... وغير المجدية تماماً، الأطفال الذين يضحكون ... دون أنْ يعرفوا لماذا، أليس هذا جميلاً. استنشق يا صديقي دراديلو، استنشق هذه التفاهة المحيطة بنا، فهي مُفتاح الحكمة، وهي مُفتاح روح الدعابة ..."[48].

1- يضع كونديرا التفاهة كعنصر من عناصر العالم، جوهر الوجود، التجلي الإنساني، إنها وجه من وجوه الحقيقة في الحياة. وهذه هي كل قيمتها حيث تنبت بشكل طبيعي كالنباتات البرية والاعشاب المتسلقة.
2- نحن نواجه التفاهة باعتبارها منتشرة على الدوام، هي في حالة فوَّاحة لدرجة تقبلها كما هي. وهنا يقابلنا ما نفعله ونمارسه ثقافياً. فهوية الناس أو الحضارة كما يقول كونديرا ناتجة عما يخلقه العقل أو الثقافة إجمالاً[49].
3- الظهور التافه- مع ذلك- هو حضور لا نرغب فيه، في المكان غير الملائم وفي الزمان الذي لا نود رؤيتها فيه.
4- كل تفاهة تتطلب شجاعة للتعرف عليها، لأنَّها قد تُوجد بغير عنوانها وشكلها. والاشارة الضمنية أنَّ هناك شيئاً مخيفاً ومبهجاً بالوقت نفسه ساكن فيها. إنَّها تعرفنا شيئاً لم نتوقعه ولا مجال لأنْ نتوقعه.
5- التسمية أمر مهم لأيَّة تفاهةٍ نتوصل إليها. والاسماء نوعٌ من الانكشاف والتجلي، وهذا يتسق مع أسمائها المعبرة عن وجود الإنسان وأحواله. ولذلك فالكائنات الإنسانية هي ما تُسمَّى، بينما الآلهة والملائكة والشياطين لا يحملون أسماء إلاّ مجازاً، ويحملونها من قبل الإنسان أيضاً. والتفاهة تنتظر اسمها حتى تبدو كما هي.

---

[48] - ميلان كونديرا، حفلة التفاهة، ترجمة معن عاقل، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب- بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2014 ، ص 108.

[49] -Roger Kimball, The Ambiguities of Milan Kundera, In: Milan Kundera , Edited and with an introduction by Harold Bloom,(Bloom's Modern Critical Views), Chelsea House Publishers, a subsidiary of Haights Cross Communications, 2003, P 35.

6- منذ اللحظة التي تحمل التفاهة فيها اسماً، تدخل إلينا بكل أريحية. لأننا نحن من أسميناها ولا غربة بيننا، هي نحن وقد أتت إلي أنفسنا.

7- جوهر التفاهة هو الإغواء، تناديك بأي وقت شاءت ولا يجدي تغطيتها بستارة من كلام أو أفعال. إنَّ إغماض العين لا يعني اسقاطها، بل زيادة حضورها.

8- يمكن لنا أنْ نحب التفاهة، فالشيء الذي يصعب تجنبه ينبغي أنْ نحبه. بل ما لم يكن إلى ذلك سبيلٌ، فلنتعلم حب التفاهات مهما تكن. ويبدو أن الحب يقربنا مما في جوهرها رويداً رويداً. إذن التفاهة موضوعٌ للحب، لأنَّها ليست موضوعاً لسواه. فهي تبدو ملقاة في العراء ولا تختفي فجأة وتوجد حيث يوجد الإنسان.

9- التفاهة عاريةٌ إلى درجة البداهة، مسلَّم بها تلقائياً. بريئة لا تقصد شيئاً غير ظهورها الاعتيادي والمباشر. فلا تقصدك أنت، لأنك لست بالنسبة إليها إلاَّ أحد زبائن واقع لا مناصَ منه.

10- هناك جماليات للتفاهة، هي ذاتها تتمتع بجمال أخَّاذ. بحكم كونها تُوجد كما هي، وتعد مصدراً للشعور بالحياة. إنَّ كل ما يقربُنا من الحياة جدير بالجمال والعبث مع العالم ومع كائناته.

11- السخرية والفرح هما المصاحبان لكل تفاهة. إذ تطلّق العنان لحاسة مجهولة لدينا نحن البشر، حاسة التفاهة ذاتها كمستوى من الوعي بالمفارقات. تبلغ يقظتها أنْ تشعرك بوجودها حين لا توجد هي. وهي بذلك لُب المفارقة الإنسانية. وتشير إلى التنوع الذي يشملنا حتى النهاية. وهو ما جعل كونديرا يكتب بأساليب القَطْع الناقص(الشذرات والشظايا)، فالأعمال الروائية متعددة الجوانب مثل القطعة الموسيقية متعددة الألحان[50]. وإذا فكرنا بذلك التوجه، فالفرح والسخرية بطريقة نيتشه ودوستوفيسكي يجعلان كونديراً على ذات الطريق من عدم اليقين المأخوذ بكل مرحٍ وابتهاج[51].

12- استنشاق التفاهة يحررنا من الإحساس تجاهها،(استنشق ياصديقي...) كأنَّها تصبح إدماناً. وكلمات كونديراً تلعب على مادة سحريةٍ هي ما تجعل الحياة نفَّاذة ومرحةً حتى الثمالة. وتساعدنا على الابتسام لمعالجة الماضي

---

[50] - **Milan Kundera, The Art of the Novel , Translated from the French by Linda Asher, Grove Press, Inc , New York 1988, P 36.**

[51]- **Yvon Grenier, Milan Kundera on Politics and the Novel, In: History of Intellectual Culture, (http://www.ucalgary.ca/hic • ISSN 1492-7810 2006 • Vol. 6, No. 1), PP 6-7**

والحاضر، لدى كونديرا اعتقاد بارع بأنَّ الكلمات والصور في العقل تمتلك القدرة على إحياء الماضي؛ وهي أيضاً تنطلق في مغامرة يصاحبها أعلى درجات الرثاء يومياً مع كل أنواع الضحك[52].

13- لا تخلو التفاهة من حكمة، وتعلمنا كيف نعيش، هي بهارات الأمور الجادة حدَّ التكلس. لأنَّها تطلق بيننا وبين أنفسنا رُوحاً من الدعابة الحرة. يقول تيري إيجلتون إنَّ اللا معنى meaningless عند كونديراً لحظة مباركة بملء الكلمة، مجال للبراءة، وقوة ضائعة إزاء وضوح العالم الذي يجبرنا على الصمت[53].

التفاهة والدعابة صنوان، أشار كونديرا على لسان رامون كذلك: قال هيجل حول الهزل إنَّ الدعابة الحقيقية لا يمكن تصورها دون دعابة لانهائية، وهذا ما قاله هيجل حرفياً" روح دعابة لا نهائية" unendliche wohlgemutheit وليس التهكم ولا السخرية. ومن أعالي روح الدعابة اللانهائية فقط، يمكنك أنْ تراقب تحتك غباوة الناس الأبدية وتضحك منها[54]. وربطاً بذلك فإن حقوقاً قد ينالها إنسانٌ لا تتعلق إلاَّ بتفاهات، وبالتالي ليس ثمة سببٌ للصراع حولها أو كتابة اعلانات شهيرة عنها[55].

لكن من المدهش إجمالاً أنْ يكشف ظهور التفاهة بعض تجلياتها انتظاراً لتجليات أخرى. وأنَّ تصبح في غير موضعها- بإشارةِ كونديرا- حتى يتوقَّع المتابع أين تكون وكيف ستصير. وإذا كان كونديرا قد نوَّه بأسلوب حاذقٍ بأنَّ التفاهة أصل الوجود، والتنويه ليس ازدراءً نظراً لربط التفاهة بتبعاتها، إنما تقرير لمعاني الأحوال القائمة، فالعلاقات والصور التابعة لها تطفح بأكثر من ظهور وأبعد من تلقائيةٍ. حيث تقدم إحساساً شاملاً يحيط بموضوعاتها كما لو كانت موجهة في مجتمعات دون غيرها. ولأنَّ التفاهة ترتكز على أبعاد نفسية وفكرية واجتماعية، فهي تُموضِّع ذاتها سياسياً بهيئة كيان عام، ليس جزئياً بالضرورة ولا مؤقتاً إنما عبر حضور طاغٍ.

أما الأهم، فهو ربط التفاهة بالوجود، لأنَّها نظرة تتشابك مع ماهية الحياة، نظرة أوسع من محيطنا المحدود بالنسبة إليها، حيث ينزوي الفعل المباشر وتبرز مسيرة

---

[52]- Maria Nemcova BanerJee, Terminal Paradox ,The Novels of Milan Kundera, For Ron: Grove Weidenfeld, New York, New York, 1990, P 73.

[53] -Terry Eagleton, Estrangement and Irony, In: Milan Kundera, Edited and with an introduction by Harold Bloom, (Bloom's Modern Critical Views), P 52.

[54]- ميلان كونديرا، حفلة التفاهة، ص 77.

[55]- المرجع السابق، ص 99.

البشر كقناع لسخافات لا تنتهي. والوجود في تلك الحالة هو لعبة الصور الزائفة رغم حقيقتها بالنسبة للإنسان. فهو يحضر كلياً ومكثفاً بقوة تجعله ضرباً من اللايقين، من اللا احتمال. وفجأة يذهب كلُّ شيءٍ، يزول كما تذهب الحياة. لكن إلى أين تذهب؟ لا أحد يعرف على وجه الدقة.

من يتأمل ظاهرة الحياة وإيقاعها السريع سيقرأ جيداً كيف تمر الأعمال والأزمنة متبوعة بأحاسيس التفاهة. المرور، العبور، الانقضاء، الترحال، المغادرة السمجة هي أعمال ندم غير مباشر فيما لا يمكن توقيفه والقبض عليه. فالإنسان يشعر أنه كائن قد فاته الكثير مما يعيش، حتى هو نفسه يفلت من قبضة ذاته.

والظهور هنا مكَّثف في تضاعيفه واستحالته معاً، هنا تعطينا التفاهة مؤشراً للمعنى، لأنَّ إدراكها لا يأتي كمعرفةٍ، ولا تنتمي إلى إحصاءات وجداول حسابية. إنها علامات معنى قابل للتأويل من واقع كونها شعوراً. هي ظهور ينم عن معطيات اللاوعي والوعي أكثر من كونها وضعاً ثابتاً. وليس أدل على ذلك من كونها تختلف من شخص لآخر في درجة فهم معانيها وتبريرها. كما أنَّ ظهوراً بهذا الوضع يمثل خاصيةً تتأقلم وسط المجتمعات المتقدمة جداً. فالحد الفاصل ليس ما إذا كانت هناك تفاهات أم غير ذلك، بل ما إذا كانت ظهوراً مرهوناً بالواقع أم لا.

إضافة إلى ذلك، تتسرب الحياة بلا رجعة ويستحيل عودة ما كان إلاَّ بالمستقبل. إنَّ الإنسان من فرط إحساسه بالتفاهات مضي يرمي بنفسه في غمار الآتي وإنْ كان مجهولاً. وتلك سلسلةُ تجري بسرعة تشعرنا باتصال حلقاتها. لكن ما مصدر التعري لما هو تافه عندئذ؟! إنَّه الإحساس بالتفاهة، فلا فاصل بينه وبين الحياة. التفاهة تختزل هذا كحبة الرمل التي اعتبرها أينشتين تختزل سمات الكون.

سلطة التفاهة

إذا نظرنا إلى صورة العالم الآن، فكأننا في مرحلة التفاهة المبرمجة والمتسلطة التي تحيط بأنشطة الإنسان. أما الإحساس بكيانها الممتد، فلأنَّها تستحوذ على انتباهنا الخاص. كما يقول كونديراً تظهر عبر الأعمال الأكثر شراسة وقساوة مثل الحروب والصراعات وبمعظم الأنشطة السياسية والاقتصادية. إذن هناك قوة ما تسكنها إلى درجة التزيُد، قوة مجهولة تُسمى بأسماء غيرها ارتباطاً بعمليات ظهور مختلفة.

والخلفية الشائعة وراء ذلك أنَّ الاغراء بالحياة المرَّفهة بات منتشراً على أعمق المستويات. حتى تقلص الجانب الموضوعي والمادي الصرف، ليصبح العالم قوة تمثيل محرَّف وزيادة رقعة الاغتراب والحرمان. وأدَّى إلى بروز مجتمعات الاستهلاك، غزارة الانتاج، الأشكال الزائفة للمنتجات وخدمات المُتَّع والوفرة

والاستجمام وانتشار المُناخ الحماسي للرغبات مما وَسَّع نطاق استرتيجيات الإغراء والإغراق[56].

الاغراء هو قصد intention تحويل الأشياء والمنتجات إلى رغبات تطلب استهلاكاً لا يتوقف. ومن جانبه الخفي، يجعلنا الإغراء منقادين دون اعتراض. ويسمَّح لهؤلاء القاصدين بصناعة عالمنا المعجون بإغراءات شتى. والدليل أنَّه لا توجد مناسبةٌ ولا شيء ولا عمل بلا حوافز مغرية واللعب على ما يعوزه (المستهلك). بحيث لا تعطِّي للإنسان أية فرصة لممارسة وعيه اليقظ، بل ينزلق على بساط ممتد من الرغبات الواحدة تلو الأخرى. عندئذ لا يستطيع التفرقة بين الغث والضروري، بل يتحول الفرد إلى زبون تجاه رغباته ورغبات الآخرين.

أمَّا الإغراق، فهو شيوع صور وأسطح الأفكار التي تخلق وفرة الحاجات والرغبات في عالمنا المعيش. إنَّه زيادة مساحة الاصطناع المختلط بجميع درجات الإغراء حتى الاشباع. لم تعد ثمة أشياءٌ محايدة تنظر إلينا وننظر إليها، الأشياء داخلنا صوتاً ورائحة ولونا وفضولاً عن طريق اغراء يسكننا انتظاراً لإغراق يراقبنا. حينئذ تصبح الصور مادةَ الأوهام الحسية الأولى، أي تُلغي أي احساس فعلي بالعالم بينما تكون احساساً جاهزاً لما نرغب. وغاية الاغراق أنْ يلفت الاستهلاك انتباه الزبائن دون هوادةٍ ولا تكون ثمة خريطة للعقل ولا صياغة وعي مغاير يفهم ويقرر.

فلم يصبح العالم وأقاليمه الجيوسياسية سوى "منتجعات براقة Glamorous resorts " لممارسة الاغراء والإغراق. وأحياناً قد يظن الأفراد أنهم يعملون عملاً خاصاً بهم ويسهمون فعلياً فيما يمارسونه، بيد أنَّهم مجرد مستهلكين وغرقى في الصور المصطَّنعة. والنتيجة على المستوى نفسه: أن يمارس الاغراق سلطة طلب الوفرة والإضافة والفائض. وتدريجياً يكون مركز التحكم والفعل خارج الأفراد رغم ارتباطه بغرائزهم العميقة. ويمسى الأفراد مسطحي الفهم والتعقل، ليس لهم من أعماق، الأعماق تتلخص في الأسطح المغرية وعلى الإنسان أن يتحرك وسط غابات الصور التي لا ينفك عنها.

وعندما تنحرف التفاهة، ينظر إليها كموضوع خارج مجاله نتيجة تحولها إلى" ثقب أسود" يلتهم ما يقابله، إذ يتضخم النمط ويتدخل في مجالات ليست له، لكنه في الحقيقة موضوع يقع في صميم الثقافة وداخل حتى خريطة العنف الأهوج. معنى هذا

---

[56]- جيل ليبوفتسكي، عصر الفراغ، الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة ، ترجمة حافظ ادو خراز، مركز نماء للدراسات والبحوث، بيروت لبنان الطبعة الأولى 2018، ص 20

أنَّ مظاهر العنف الديني المسلح كانت بالمثل تنويعات على التفاهة، فالعنف بنية تافهة تفضي إلى السخرية من الإنسان سواء بتكفيره أو بقتله أو تشريده أو تشويهه أو مطاردته.

ولا أغالي إذا اعتبرنا بعض الأحداث الربيعية العربية- أو هكذا بدت من خلال العنف– يوميات من التفاهة المملَّة. تفاهة عمليات الكر والفر والأحلاف والتنظيمات والصراع والمؤامرات. وصلت المشاهد درجة الغثيان اليومي بفضل ما يجري على الأرض. هناك من التفاهات مالا يدركها التافهون أنْفسهم، لأنَّها تتحرش بالقيم والمبادئ والأسس وتجعلها بلا معنى ولا تحمل أي شيء. كما أنَّ ممارسات مثل الفساد والاستبداد، كسلوك سياسي ضار بالدولة والمجتمع، تأتي تفاهتها من التلاعب بجوهر العدالة وخداع القيم.

ولذلك قد تنقلب المجالات العامة في بعض المجتمعات إلى "صناديق قمامة" تحت طائلة الأنظمة السياسية حيث تفاهات الحكام وممارساتهم. فالنفايات نتيجةُ ما بعد حداثية لمنظومة الحداثة التي هي افرازات الصناعة والمؤسسات وتأسيس المجال المشترك للتفاعل. القمامة garbage موجودة في كل مكان. يمكن العثور عليها في كل شيء حداثي دون استثناء، ومع ذلك فهي غير مرئية إلى حدٍ كبير لمعظمنا. وقد تجمع القمامة بعض التفكير العميق حول طريقة صنعنا للعالم الذي نعيش فيه[57]. وكما أنَّ هناك نفايات لكل الأنشطة المادية فهناك نفايات لما هو معنوي ورمزي.

النفايات هي العدمية التي بلا شكلٍ formalessness، ذلك الشبح الذي يسبب إزعاجاً متواصلاً للحاضر، الأحشاء، الفتات، المخلفات، جبل من الأشياء التي لا يمكن تمييزها. وهي كذلك مرفوضة منفيَّة وتأخذ علاماتها ضمن نظام القيمة الذي يتعامل معها بإقصاءٍ صارم[58]. والتفاهة تجسد الحال نفسه لكونَّها بلا شكل، غير أنها لا تستجيب للإقصاء في موضع ما، وترفض ألاَّ تعود ثانية. فهي لا تمل من تعريف وجودها للآخرين، وبهذا تحتوى على كم من الخداع الخاص والذي يجد رواجه. وإذا كان لنا ربط الظاهرتين، فالتفاهة تنتمي إلى نوع من القمامة، حيث "القمامة خالدة

---

[57] - John Scanlan, On Garbage , Reaktion books Ltd , London 2005, P13.
تُرجم هذا الكتاب بعنوان: جون اسكانلان، النفايات: مدخل إلى الشك والخطأ والعبث، ترجمة محمد زياد كبة، مشروع كلمة، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الطبعة الأولى 2017، الفصل الأول ص ص 21- 86.

[58]- John Scanlan, On Garbage, P 17.

immortal، تنتشر في الهواء، وتتضخم في الماء، وتذوب، وتتعفن، تتفكك، وتتحول إلى غاز، إلى دخان، تنتقل عبر العالم وتغمره engulfs it تدريجياً[59].

هكذا تسير التفاهة بقوة " الغَمْر" الذي لا يترك شيئاً، مثله مثل المياه الغامرة للأرض، وإذ تبدو حياتنا اليومية سائلة، غير أنَّها عندئذ نوع من الدوَار الذي لا نهاية له. وظهور التفاهة هنا يمثل فخاخاً عالية التصميم حيث تؤسس لأي تجاوز. والفكرة أنَّ هناك سياسات للدُول تُدخل مواطنيها في حالة فراغ وتزرع نفاياتها بالوعي الجمعي. وأنَّ على المواطنين كي يجدو موطئَ حياة أنْ يلقوا بعقولهم في صناديق القمامة. أن يخلعوا وعيهم كما يخلعون نعالهم الرثة تاركين الواقع لزحف التافهين كما قال أمبرتو إيكو.

في هذه اللحظة تتدخل أصابع الساسّة كما يرى بيير بورديو، نظراً لأنها لحظة مصطَّنعة بحرفيَّة سياسيةٍ، وهذا يظهر جلياً في عملية صناعة الرأي العام. فهناك من وجهة نظره التأثير الذي تمارسه سياسات الاتصال الخاصة بالزعماء السياسيين على " الرأي العام". حتى يظهر العمل السياسي باعتباره فن استخدام مجموعة من التقنيات التي طورها متخصصون في "التواصل السياسي" إلى " تغيير الرأي العام" to shift public opinion، أي توزيعات مصطَّنعة بشكل أكثر أو أقل تنتجها شركات استطلاع الرأي على أساس الردود الفردية التي "تجمعها" في وضع مصطنع من سكان هم في غالبيتهم العظمى على علم سيء ومشوَّه بالأوضاع السياسية[60].

بتلك الطريقة عادةً ما تفسح الدولة ما بعد الحداثية مجالَّها إلى صناعة رموز التفاهة وأقطابها. وليس شرطاً أنْ تكون كائنات مسْخاً كالبهلوانات، بل ربما الحاكم نفسه أبلغ نموذج للتفاهة اللزجة، حيث يصدم متابعيه بخطاباته الغثة واحتياله الكذوب والتلاعب بالواقع لدرجة مذهلة. ومن ثمَّ يمكننا أنْ نطلق فكرةَ أنَّ التفاهة تأتي من أكثر المصادر قداسة وسلطويةً في مجتمعات راهنة، لأنَّ الفاصل بين أية تفاهة وسواها قابل للتخطي. ليست مشكلةُ كوكب الأرض في إنسانيةٍ محفوفة بالمخاطر، إنما هناك تاريخه الطافح بكم من التفاهات المُعتَّقة.

---

[59] - Ivan Klíma, Love and Garbage (Novel),Translated from the Czech by Ewald Osers, London, 1990. P 6.

[60]-Pierre Bourdieu, Political Interventions: Social science and political action, Texts selected and introduced by Franck Poupeau and Thierry Discepolo Translated by David Fernbach, Verso, London , New York, 2008.P 62.

وفي خضم فوضى السياسات العالمية التي تدعم سلطات محلية، تظهر فئات تافهةٌ خلال نمط عيشها، وهي كائنات تتسلق على حواشي المجتمعات وعيونها مصوبة على الفرص المتاحة للثراء وانتهاك القانون واستبعاد الفئات الأخرى. وتأتي الإشارة لتكوين طبقة تستعبد طبقات أدنى. وتحاول الطبقة التي تتبنى التفاهة أن ترسم معالمها بأساليب نوعية أثناء الكلام والملبس والسلوك. ليس الفنانون هم المعنيون فقط في بلدان الشرق الفقيرة ولا هم رجال السياسة الذين يناقشون أموراً تافهة وينشرون علاقاتهم الفاضحة وممارساتهم للعمالة والعمولة، بل الدائرة أوسع من ذلك بكثير!!

إنَّ انفصال التفاهة في تكوين جماعي ربما أكثر إفرازات الحياة الراهنة وضوحاً، وبدا ذلك بارزاً مع تشكل فئات اجتماعية تنمو اقتصادياً وبلغة الجغرافيا تزحف مع توقعات الضغوط الحياتية والسياسية. فئات تعي ماذا تريد أبعد من كونها طبقةً بعينها(بمعناها الماركسي الكلاسيكي). أي هي خليط من الأدنى والأعلى والهامشي والضروري على خلفية الاقتصاد والثقافة الطفيلية. فمثلما أنَّ التفاهة نقص في الوعي وعجز عن الإبداع، فإنها عابرة لطبقات المجتمع، متغلغلة في المعرفة والتعليم والثقافة والإعلام والاقتصاد. ببساطة تعدُّ التفاهة مصاحبة لفئات تخترق الطبقات، فكل فئة تجري وراء تفاهتها المفضلة، لأنها تتحرك فقط وفقاً لمصالحها بفضل اختلال الأوضاع الاجتماعية والسياسية والفكرية.

بناء على ذلك تكتسب التفاهة معالم الوسط الذي تُمارس فيه. وبالإمكان بحكم تجاوز التصنيفات أن تتعلق بالسلطة الرائجة. ولا سيما أنَّ التافه كائن يشْتَّم تقلبات السلطة وتحولاتها، لأنه لا يملك شيئاً من وجوده الأصيل، بل يتقلب كالحرباء بحسب مناطق النفوذ. فقد نجد سياسياً يدَّعي المعرفة حتى ينال رواجاً أمام مؤيديه، بينما هو يمثل تفاهة تصيب مشاهديه بالغثيان. وستجد فناناً ينظِّر إلى الشأن العام كأنَّه رجل حصيف، لكنه ليس أكثر من خادم للسلطة. وستجد إعلاميين يرتدون أفخم الملابس (البراندات العالمية international Brands)، لكنهم أبواق صدئه لقوى استمرأت تشكيل جماعات النفوذ.

التفاهة في المجتمعات (المتخلفة والمتقدمة على السواء) تتبدي في كل شيء، فهي إفراز يشمل الأسس التي تنتج الحياة اليومية. حيث الصراع والممارسة التي تستحضرها كبديل. في صمت الواقع وهسيس المآرب وتواطؤ القوى تنمو التفاهة كالعشب الليلي. والتفاهات تعرف بعضها جيداً لدرجة الجنون المكشوف، تطفو فوق رقعة الحياة. كما يرى كونديرا سيكون علينا أنْ نحب التفاهة بكل أريحيةٍ، وتلك طريقة لفهمها، لتداولها، للتعاطف معها، لترويضها وحتى للهروب منها. في البداية سيكون موقف الرفض واضحاً بينما تدريجياً ستعمل على استدراج الرافضين، إنَّ حباً من هذا النوع هو نفوذ التافهين.

وعلينا الاعتراف بأنَّ التفاهة قد تكون تمرداً على العلاقات الشائعة، وهي تفاهة من زاوية المتابِع بحكم أنَّه يدخل انحيازاته في المسألة حين يصف أحوال من يتفاعل معهم. بيد أنَّ فرض نمط السلوك الموصوف بذلك هو تأكيد للخروج عن السياق، وهو أشبه بخروج الفنان عن سيناريو المشهد مستخدماً قدراته الخاصة في كشف أبعاد أخرى.

بالنتيجة فإنَّ أخطر شيء ببنية التفاهة هو تحولها إلى عملٍ يجسد أساليبه وتصوراته. فقد تظهر بأنشطة اقتصادية وسياسية كعمل مادي، عندئذٍ لم تعد المسألة شكلية، بل اقتصادية لها طابع الإنتاج الرمزي الملموس. غدت كنمط من أنماط العيش، إنَّ وعياً يحملها قد أعطاها حمايةً قابلة للاستمرار. وبالتالي ليس سهلاً عند تلك المرحلة تصنيف أفعال تافهة وأخرى غير ذلك، لأنَّ فائضاً منها لا يعطي فرصةً لذلك.

أي تصوغ التفاهةُ وقتئذ نسيج الحياة المعاصرة بتنوعها التكنولوجي والمعرفي والسياسي والديني، فأيَّةُ ظاهرة تمسك سطحَ العلاقات الحياتية يصعب النيل منها. لأنَّها تمارس دورات من الإنتاج والتسويق والتداول والمباشَرة وغير المباشَرة، لا بمعناها الاقتصادي الصرف، بل بمضامينها الاستراتيجية التي تسمح بانتشارها. والاقتصاد يخلع هنا إطاره الشامل على ظاهرة التفاهة سواء بدائلها أو علاماتها أو خطاباتها. جميع ذلك يمثل اقتصاداً رمزياً في مجالات متباينةٍ، يخدم إنتاج الظاهرة وإعادة إنتاجها، أي تغدو التفاهة سُوقاً مفتوحاً للجميع.

إذن حاصل الفكرة أنَّ ثمة سلطة كامنة في التفاهة، سواء أكانت تستعملها لأغراض خاصة أم تلك التي يحاول فاعلوها التمرد عليها أم تلك تكتسبها التفاهة بالتكرا. الأمر ناتج عن وجود نفس سياسي يتردد في جوفها بطريقةٍ ما.

وهذا ما دعا الفيلسوف الكندي آلان دونو Alain Deneault للتساؤل: هل للتفاهة سلطة يمكن الاعتداد بها كحال أية سلطة؟ وللإجابة عن السؤال دفع دونو بكتاب طريف يحمل العنوان نفسه " الميديوقراطية أو سلطة التفاهة La Médiocratie 2015 "[61] . وبالعام التالي كتب نصاً مكملاً " سياسات المركزية المتطرفة Politiques de l’extrême – centre 2016 "[62]. وقد صدر الكتابان

[61]- راجع الرابط التالي لعرض فكرة الكتاب:

Alain Deneault, La médiocratie, Lux, Montréal, 2015.

https://www.ledevoir.com/lire/453856/critique-la-novlangue-de-la-mediocratie

[62]- راجع الرابط التالي لعرض فكرة الكتاب :

بمونتريال- كندا، ليعالج ديكتاتورية التافهين، كيف يتصرفون على نحو متطرف، وبأي نظام ومفاهيم يمارسون السياسة ؟

الكتاب الأول يمثل رسماً لخريطة البناء التافه لعالمنا المعاصر كاشفاً أبعاده. وبلغت طرافته حدَّ إبراز التفاهة كظاهرة يتعذر انكارها وإلاَّ لأنكرنا العصر، فهي تقدم إمكانيات لقراءة لافتة حول قضايا السياسة وتحولاتها. وقد وضعَ دونو فكرته عن حكم التافهين ومتوسطي الذكاء في نطاق الشأن العام، وبالوقت ذاته ربطها بالظواهر المصاحبة - كالمعرفة والفكر والأخلاق- على دائرة أوسع.

يُرجع آلان دونو ظهور محدودي القدرات في ثقافة عصرهم إلى انتشار حالة الاكتفاء بما هو كائن، فقد بات الركود مناخاً سائداً. مما بث لونا من الطمأنينة القاتلة لدى الإنسان، حين لم يتطلَّع إلى تغيير أوضاعه. وهذا بحد ذاته دفعه للرضى عن النفس، والدعة والوقوف على سطح الواقع ليس أكثر. وقد رافق ذلك جميع أنواع الفساد والجهل التي رسخت أركانها. وسواء أكان سلوك أصحاب المسؤولية "مهتماً" بالواقع أم كانوا مستجيبين للخداع إبقاءَ للأوضاع على ما هي عليه، فنحن كمواطنين نواجه نقصاً شديداً في إمكانياتنا الإنسانية معرفياً وسياسياً، حيث فقْر الأفكار الثرية لتطوير المجتمع.

وبالتالي، ليست النوايا الحسنة كافية للتعامل مع التغيرات والأحداث ... وخاصة أنَّ الأخيرة تحدد الوضع الراهن. ومع ذلك كما يرى دونو، علينا أن نجرؤ على التفكير خارج الصندوق حتى يصبح التغيير ممكناً. وأنْ نحرر المعرفة والتعليم من الخنوع للفاسدين والبلهاء، ويتمثل دونو قول الانجيل l'évangile بأنَّه لا يمكن لأحد أن يخدم سيدين، لا يمكنك أنْ تخدم (الله وعابد المال) "Nul ne peut server deux maîtres (…) Vous ne pouvez server Dieu et Mammon"، في إشارة إلى السياسات القذرة التي تستعبد المواطنين، وتجعل الإنسان منقسم على نفسه ومحلاً للنفاق والفساد، ولذلك نحن في حاجة إلى إحياء الإنسانية[63].

Alain Deneault, Politiques de l'extrême centre, Lux, Montréal 2016.
https://en.wikipedia.org/wiki/Alain Deneault
[63]-Jacques Dufresne, La mediocratie selon Alain Deneault :

http://agora.qc.ca/documents/la mediocratie selon alain deneault

ولكن الوضع مليء بظروف تجعل الأفراد أسيري التفاهة، فمثلاً هذا الاحتمال قائم لأن مجتمعاتنا الراهنة مليئة بالوظائف عديمة الفائدة useless jobs التي لا يريد أحد التحدث عنها، حتى أصبح الأمرُ اعتيادياً. فالهدف منها هو جني الأموال الطائلة بغض النظر عن اسهامها في المجتمع. كما أنَّ موضوع العمل مليء بالمحرمات taboosوالقيود التي تحُول دون فاعليته. حتى أنَّ معظم الناس لا يحبون وظائفهم ويستمتعون بأعذارهم لعدم الذهاب إلى العمل[64].

على تلك الخلفية نشأت ثقافة خصبة(ثقافة الرداءة) لإنبات التافهين، فها هم يحتلون المواقع وبالوقت نفسه يجنون أموالاً طائلة. إنَّ الاموال هي السماد العضوي الذي يهيّج آمال التافهين بزيادة نفوذهم. وحول سؤال ما هي الرداءة؟ ضمن حوار في مجلة Le Point الفرنسية، أشار دونو: أنَّ الرداءة يطلق عليها mediocracy، وهي كلمة تحدد المرحلة التي يكون فيها الرديء بلا أية مميزات ولا معالم تضمن التفوق والتطور. فالرديء هو المُتوسط في العمل، وتلك المعطيات لا تسمي أشخاصاً بعينهم، بل هي اتجاه وديناميةdynamics تنتج مرحلةً بمجملها وتكرس مُناخاً عاماً[65].

لكن السؤال الآخر: كيف نخرج من هذا الوضع؟ يبدو أنَّه ليس سؤالاً أخلاقياً ولا سياسياً، المخرج هو إمكانية تطهير هذه البيئة فكراً وممارسة. أي ينبغي على المسؤولين بدلاً من السقوط في التفاهة التفكير بعمق لدى ممارسة الأعمال وعند تطبيق القوانين والسياسات. يجب أنْ يسعى المسؤولون إلى التَّميُز والتفرد عوضاً عن ضعف الرؤية. لكن حثاً من هذا القبيل لن يجدي فتيلاً دون فهم بنية التفاهة وكيف تنشأ وتتمدد!! ولذلك يرى دونو ضرورة لتنقيب عن جذور التفاهة بشكل أعمق.

هذا معناه– فلسفياً – ضرورة استحضار المغيَّب، المهمل، المستبعد، المترسب ليكون جزءاً ضرورياً من الصورة(البارادايم). حتى إذا حسبناه عديمَ القيمة، يغدو في الواجهة كموضوعٍ رئيسٍ. فالتافهون يسعون إلى تحديد الشروط المحيطة بهم، آملين أنْ تخلق ممارساتهم ظواهر على الغرار ذاته. لكونهم أحد تروس آلة اقتصادية سياسية عملاقة ومهيمنة. وبهذا، فمعالجةَ المسألة - كما نوضح- ستجعل من التفاهة متناً لكشف

---

[64] -David Graeber , Bullshit Jobs :A Theory, London, May 15 , 2018, PP 6- 8.

[65]- Alain Deneault, Pourquoi Les Mediocres Ont Pris Le Pouvoir?: Entretien avec Victoria Gairin, Le Point, 16 octore 2016, mise à jour le 5 septembre 2019.
https://www.luxediteur.com/pourquoi-les-mediocres-ont-pris-le-pouvoir/

المعطيات الغائبة وسط التيار العام في المجتمع، ولديها القدرة على ابراز المناطق المعتمة.

يذهب دونو معرفياً وفلسفياً في هذا الاتجاه محدداً مواصفات وجذور(حكم التافهين: الميديوقراط)، ودلالة هذا المصطلح مهمة إذ ترجع إلى كلمة الميديوقراطية: Médiocratie المشتقة من كلمتي" Mediocris " اللاتينية، وتعني: متوسط الذكاء، سيء القدرات، قليل الموهبة، ضعيف المهارة، الرديء إلى حد اللاتميز، الدنيء، وكلمة "kratos" اليونانية وتعني الحكم والسلطة والهيمنة. إذن هي حرفياً تعبر عن سلطة التفاهة (حكم التافهين)، وتدل على تركُّز السلطة والثروة في أيدي متوسطي القدرات[66]، والكلمة مثل كلمة الديمقراطية La démocratie التي تعني حكم الشعب بناء على أصل مقطعيها demos و kratos.

ولنا أنْ نكتب باقي المعاني التي تتحرك داخل نسيج مفهوم Médiocratie، فهو يعبر عن موقع صغار العقول والحمْقى من السلطة. ولعلَّ السلطة بموجب رفضها للتراجع في مجتمعات يهيمن عليها متوسطو العقل، فإنَّها بمثابة الأغراء الأقوى لتعويض قدراتهم.

بناءً عليه كانت الميديوقراطية المعاصرة شعاراً لتمكين الأقل كفاءة من مراكز الحكم ومواقع المسئولية واتخاذ القرارات. وفي هذا لا يختلف مجتمع عن آخر إلاَّ في حيل التافهين وتسللهم إلى فضاء المجتمع. لأنَّ التفاهة المعاصرة هي ملح السياسة، وبحكم التلاعب بالمعايير والأسس، فإنَّها تطفح ضمن الحواشي والممارسات الأكثر تطوراً. حيث تغلِّف ذاتها بالتكنولوجيا ووسائل الاتصال وألوان الطقوس والأعمال الموصوفة بالعظمى والتاريخية كما درجت النخب ترديد ذلك.

السلطةُ عندئذ هي المسافة الخفية بين ضعف القدرات وممارسة السيطرة على الآخرين، فنتيجة لضعف إمكانيات التافهين، تعدُّ سلطتُهم تعويضية بما ليس منطقياً، أي بما هو متزيَّد فيه ومبالغ في تأثيره. وهذا هو الاعتماد المعكوس، حيث تغذي السلطة تفاهة لن تزول إلاَّ بزوال حامليها، ونظراً لإصرار التافهين على الحكم، فلن تزُول معالم السلطة. وإذا كان آلان دونو متأثراً بفيلسوف الاجتماع جورج زيميل

---

[66]- Alain Deneault, Pourquoi Les Mediocres Ont Pris Le Pouvoir?: Entretien avec Victoria Gairin, Le Point, 16 octore 2016, mise à jour le 5 septembre 2019.
https://www.luxediteur.com/pourquoi-les-mediocres-ont-pris-le-pouvoir/

Georg Simmel، فتلك الجدلية تُخضِّع الآخرين غير المنخرطين في التفاهة لرحاها، فلا وجود للإنسان إلاَّ في سياق متبادل التأثيرات والعلاقات[67].

التافهون(الميديوقراط) يتكالبون على السلطة مثلما يتهافت الذباب على الجيف، دون هذا يعلمون كونهم في عداد المهملين. لذلك هم عادةً كائنات لزجة، سمجة، متمحِكة تتعلق بأية أهداب الحكم ولو كانت بسيطةً. ويمارسون إفراطاً في العنف اللفظي والفيزيائي، كأنّه شيء طبيعي وكجزءٍ من وجودهم السياسي، بل لا يستطيعون انفصالاً عن التشنج السلطوي باسم ودون اسم، قد نضيف أنَّ المعاملة الغربية للآخر the Western treatment of the Other تجاوزت التقاليد الكبرى للمسيحية والإنسانية وعصر التنوير ووصلت إلى نهايتها مع تطوير هيجل للديالكتيك في القرن التاسع عشر. الأهم من ذلك، أنه يبدو أن جدليات هيجل ترجمت ونسخت transcribed بنجاح الآخر الثقافي [68].

من هنا يرصد دونو التفاهة كنسق متغلغل ضمن تفاصيل الأوضاع السياسية والاجتماعية والاعلامية[69]، تصنعه وتدعمه قُوى عولمية إمبراطورية عابرة للدول والأقاليم. وبخاصة الرأسمالية وقواها المتوحشَّة إذ تحكم الأسواق والصراعات بعرض التفاهات كبضائع. وغدت هي المادة الراكدة على المقاهي ومنصات الإعلام وعبر البورصات وأقبية السياسات الدولية.

---

[67] -Alain Deneault, L'appréhension d'une ère de la perversion Pourquoi philosopher par analogies?, en: Georg Simmel et les sciences de la cultureâ, Sous la direction de Jean-François Côté et Alain Deneault, Les Presses de l'Université Laval 2010 ,P39- 53.

[68] -Wei Zhang , Heidegger, Rorty and The Eastern Thinkers, A Hermeneutics of Cross-Cultural Understanding, State University of New York Press 2006,P 35

[69] -Alain Deneault, :'' La Médiocratie Génére et Promeut un Citoyen Résolument Moyen'', Vendredi, 16 Octobre, 2015:
https://www.humanite.fr/alain-deneault-la-mediocratie-genere-et-promeut-un-citoyen-resolument-moyen-587074

ورغم ذلك لا يعدُّ الأمر بهذه السذاجة المُريحة. لأنَّ عبارة "نسق التفاهة" تفترض وجود إرادة تفاهة ساهرة على الأمر. وليس هذا عملياً، ولاسيما بالنسبة للجانب الأخلاقي. لا يوجد هناك من يستطيع الانتهاك الكلي لقيم قد تلحق به الأذى المعنوي. إذ قد يقال إنَّه لا تفاهة بدون شخص تافه هو الموصوف بها. أيضاً يحتاج النسق إذا افترضنا اقترانه بالتفاهة وعياً مفارقاً بما يتركه من آثارٍ. وعلى المنوال ذاته يحكم النسق سلوك الأفراد، استناداً إلى أنَّه لا يجري نسق عام بلا سلطة.

تأكيداً لما سبق يرى دونو أنَّ البلاهة غدت إحدى تقنيات الأنظمة السياسية، وهي لا تأتي دون أقطاب يحملون أفكاراً وخططاً قابلة للتطبيق. الفارق أنَّه إذا كان البلهاء تافهين حتى النخاع، فالسلطة تلبس أفعالهم رداءً من المشروعية. أي أنَّ السلطة مصفاة لا تستثني البلهاء، بل تعطيهم قدرات فاعلة على المستوى الجمعي. فالسلطة لا تخدع فحسب، إنما تشرعن الخداع مادامت مؤثرة، إنَّها تحوي داخلها يرقات لتفاهة تتناسل في جوف خطط الهيمنةِ. كلُّ سياسةٍ من هذا الصنف هي الحاضنة التي توفر شروطاً لنمو فيروسات التفاهة. وتسللت سماتها – يواصل دونو- خلال ما نسميهم الخبراء في اغلب قطاعات الحياة الراهنة. فالخبير يرتدي ملابس الذين ينفقون عليه ويتحكمون فيه، وهو المعبر عن أيديولوجيا تستعمله لصالح ممارساتها، وهو المدافع عن سلطتها، إنَّه بالفعل يقوم بدور الممثل[70].

وللدقة فإنَّ السلطة قد تفرز ما يخادع جمهورها العريض إلاَّ أن التافهين يتعاملون معها عضوياً وسياسياً بشكل متواطئ. وهنا مفهوم الكتلة البلهاء من التفاهة الآخذة في الانتشار، الحاكم التافهة يتعامل مع السياسة بمنطق الكتلة لدرجة أنَّ نظامه السياسي يسير وفقاً لفيزياء خاصةٍ. حيث لا توجد كما يقول جان جاك روسو أية مصلحة عامة ولا نعثر على أي سبب لذلك، كما أنَّه لا مفر أمام المواطنين من تلقي كافة الإساءات[71]، حيث يحرص الحاكم على إشاعة روح البلاهة بواسطة شبكة

---

[70]-Alain Deneault, Pourquoi Les Mediocres Ont Pris Le Pouvoir?: Entretien avec Victoria Gairin, Le Point, 16 octore 2016, mise à jour le 5 septembre 2019.
https://www.luxediteur.com/pourquoi-les-mediocres-ont-pris-le-pouvoir/

[71] - Jean-Jacques Rousseau, A Discourse on Political Economy, Intern ational relations and security Network, Primary Resources International Affairs, ISN Eth Zurich,
(WWW.isn.ethz.ch), P 2.

الموالين والأنصار وأصحاب الحظوة. شريطة أن يكونوا بمستوى التفاهة نفسها، وأن يكون التسابق لا لصالح الدولة، إنما لترسيخ السلطة وسطوتها بشكل أفقي.

تباعاً بواسطة علاقات التافهين، تتكون شبكة التفاهة التي تلتهم النظام السياسي، وتستبقه نحو مصالحها، ولا تفتأ تواصل وجودها كلما أتيحت الفرصة. فالتفاهة تتصلب في مواقفها لو اعترضتها أدنى مشكلةً. وتصبح قوية مستغلةً موارد الثقافة في تحريك الدفة لما تريد. والعلاقات بالمعنى السابق لا تتحدد في الهواء، لكنها تستند إلى تخلف المجتمعات، وإلى بنية موازية من العلاقات العامة. فالتصورات الشائعة هي المخزون الاستراتيجي للتفاهة.

أما أخطر ما يفعله نظام التفاهة، فهو إقرار معايير ضمنية، وصحيح هي معايير تخصه ولكنه يفرضها على المجتمع. ولا يفوتنا أنَّه بتواطؤ التافهين، ثمة خط صاعد لظهورهم الموازي. ويتحولون من كونهم مهمشين بالتصنيف، ليحتلوا مواقع القيادة، لأنَّ المعايير الضمنية ستحتم وجودَّهم. وكما نرى في بعض المجتمعات الشرقية والعربية يكرس التافهون قيماً وتصورات على المستوى ذاته، ونتيجة سرعة انتشارها، فالإنسان العادي يسقط في أحابيلها ولا يجد مناصاً منها لبلوغ أهدافه البسيطة. عندئذ يتحصن التافهون داخل برادايم حياة (paradigm of life)، أسلوب في العيش، فالمساحات الحرة تتقلص أمام أية إرادة ترفض ذلك.

التافهون كالجراد البري لدى الأنظمة السياسية، ينتشرون في كل مكان، يتراقصون على كافة المسارح، يلتصقون بالكراسي التصاق الديكتاتور بأهداب السلطة وزيها الرسمي. لقد بلغ التافهون المدى في التعليم والثقافة والسياسة والفن والواقع الافتراضي. أصبح الواقع مغطًى بكمٍ مهول من لُعاب التافهين نتيجة تزلفهم ونفاقهم للمسئولين. وفيما يرى هيجل أنَّ النفاق Hypocrisy ينطوي (أولاً) على معرفة بالكلي الحقيقي true universal ومن ثم يأخذ شكل الشعور الاخلاقي بالواجب. وكذلك (ثانياً) توجد به رغبة جزئية تتعارض مع ما هو كلي. ولكن (ثالثاً) مع مقارنته لهاتين اللحظتين تتكون إرادة لدى المنافق اشبه بإرادة الشر، وهو ما يعني التصرف بشكل سيء[72].

ونتيجة زحام التافهين، فالمهمة الأولى أنْ يتعلقُوا بالباراديم الذي وضعوه، لا بسبب إمكانياته بل لكونه يُشعِر متابعيه بالامتلاء، وهو امتلاء يخطف الوعي اليقظ.

---

[72] - G . W. Friedrich Hegel, Elements of the Philosophy of Right, Edited by Allenw. Wood, Translated by H. B. Nisbet, Cambridge University Press, London - New York 1991, PP 170 – 171.

فالسلطة المتولدة لديهم عندئذ هي سلطة واهية رغم ظهورها بعكس ذلك. وهي إضافة إلى عناصرها العامة، تعد ابنة اللحظة الطائشة، إنَّها الصورة التي تتلاعب بالإغواء أمام الجماهير، بحيث تترك لدى المتابع كماً زلقاً من الجاذبية. جاذبية الهيمنة الساعية للاستحواذ على أغلب الأنشطة.

في تلك الخطوة تنقلب التفاهة إلى سلطةٍ عبر وسائط النظام السياسي، بحيث تشكل "ديكتاتورية ناعمة" soft dictatorship ولكنها أشدَّ عنفاً، حيث تسحق اعداءها بكل قسوةٍ. وهذا لا ينفي بالطبع وجود تطورات في جوانب العالم المعاصر تؤكدها. فالرأسمالية مرة أخرى لا ترتبط بحروب لنهب الثروات العالمية والسيطرة على الشعوب ومركزية الاستهلاك، بل لن يتم كل ذلك إلاَّ إذا جعلت البشر أنفسهم أحد السلع التافهة. بكلمات نعوم تشومسكي يُطلق على هؤلاء حتى باسم الديمقراطية الرعاع والغوغاء the rabble[73].

إنَّ شرط الرأسمالية المسيَّسة أنْ تغرق الإنسان في أوحال التفاهة، وأنْ تجعله ساعياً إليها بكل دأبٍ. وبالتالي ليست العقول الكبيرة هي التي تبنيها الرأسمالية بل العقول التي تستطيع توظيفها كرأس المال بالضبط. أي أنَّ الرأسمالية حتى تجد لها منفذا للسيطرة على المجتمعات لابد من تغليب سلطة التافهين، فالأسواق الحقيقية في السياسة هي أسواق إدمان التفاهات وما يتبعها[74].

حينها يصبح كلُّ شيء قابل للبيع والشراء بدءاً من الإله وملائكته وجنته ونيرانه ومساجده وكنائسه ومعابده وأيقوناته وقرابينه، مروراً بالهويات والمقدسات والقيم والأخلاقيات وليس انتهاء بالدول والمجتمعات والجماعات والمذاهب والأيديولوجيات. نحن في المراحل المتأخرة من بيع كل شيء، لا قيمة هناك لأية ثوابت، وهذا مهم بالنسبة لفهم صورة العالم سياسياً وكيف تتقلب على هذه الشاكلة.

وبذلك تضمن التفاهة وجود عدة أشياء:

---

[73] - Noam Chomsky, Keeping the Rabble in Line, Interviews with David Barsamian, published by Noam Chomsky and David Barsamian, New York ,1994, P140

[74]- انظر: لوريتا نابوليوني، الاقتصاد العالمي الخفي: رأسمالية جديدة (تجارة الرقيق والجنس- فضيحة القروض العقارية- القرصنة الأدبية والدموية- تبييض الأموال- تجارة المخدرات)، ترجمة لبنى حامد، مراجعة وتحرير مركز التعريب والبرمجة، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2010. ص ص 45- 77.

أولاً: فتح أسواق جديدة تبتاع الأصول بدءاً من التافهين وأصحاب الكفاءات الأقل ونهايةً بما خف وزنه وثقلت سلطته، كي يتحدوا ويتماسكوا لاجتياح جغرافيا العالم. الشعار وارد: " يا بُلهاء العالم اتحدوا " كي يكون الانتصار ساحقاً.

ثانياً: استبعاد أصحاب الكفاءة والابداع من مجالات التأثير. لأنَّ أكبر الأخطار أمام التافهين أنْ يدرك آخرون القيم الحقيقية للفعل والإنتاج والإدارة والتنظيم. وهي معركة خفيَّة لا تنتهي إلاَّ بإجهاز أحد الطرفين على الآخر. والتافهون يحرصون بكل الحيل على حسم الصراع لصالحهم.

ثالثاً: قلب قوانين التطور المادي الجدلي، فإذا كان التراكم الكمي يحدث تأثيراً كيفياً، فالرأي الذي يراهن عليه التافهون أنَّ التراكم الكيفي للخطابات الفارغة والقيم البلهاء قد تترك أثراً في الواقع وتكيفه بحسب منطقها.

رابعاً: نزع أية معايير عامة للتمييز بين الأشياء. فاللا معيارية هي المناخ الخصب لنمو المتطفلين وإعطائهم الرواج والسلطة. والحقيقة أنَّ اشتغال التافهين على هذا ليس سطحياً بل هم يضيعون الأسس ذاتها. بمعنى أنَّ كلَّ حالة لا معيارية إنما تخلق معايير مائعة من جنس صانعيها. وقد يقال: الشعوب تريد ذلك (الجمهور عاوز كده)، كما أنَّ صرامة الحياة ليست مطلوبةً بهذا القهر. ولذلك يقولون دوماً: كن تافهاً تحظى بكل المكاسب والأرباح، وأنَّ المسؤولية لا تحتاج عادة مبادئ الإبداع والتقدم الفعلي!!

خامساً: لا تتطلع التفاهة إلى مبررات، فالتبرير ليس موضوعياً في نسقها السائد. خطتها هي القضاء على التبريرات بواسطة إشاعة التبريرات المعكوسة مثل: أن الكفاءة ليست أكثر أهمية من الخبرة، وأن الحياة لا تشترط النجاح الدائم، وأن الفرص دوماً آتية للجميع.

بالنتيجة تكون فكرة العمل مجرد مواصفات جوفاء، يصبح العمل كما يذهب ألان دونو قالباً فارغاً للقيام بالمهام المطلوبة من الشخص، وهو بحالته السطحية. من ثمَّ لا يختلف فرد عن آخر في هذه الوظيفة أو تلك. بحيث يصلح أيُّ فرد للقيام بها من عدمه. على حد قول فيلسوف العلم بول فييرآبند: كلُّه ماشي anything goes. أي في غياب أصالة الفكر يمكن لأي شيء تافه أنْ يسود. لكن عبارة فييرآبند تستعملها نظرته المنهجية حول فوضويةِ المعرفة، من باب أنَّ تعددية النظريات ووجهات النظر المختلفة ليست مهمةً فقط للمنهجية العلمية، لكنها أيضًا جزءٌ أساسي من النظرة

الإنسانية[75]. بينما التفاهة تطرح العبارة لتسليع الأعمال وقواعدها ورؤيتها للحياة والتاريخ.

أي أنَّ التفاهة تجعل المبدأ لوناً من الترفيه والميوعة الفكرية والتلاعب بالأبنية الرمزية لأجل المكاسب. فما معنى أن يصبح الإنسان كائناً عارضاً لا يستطيع إبداع مضامين العمل وقدراته؟ إن تعميم الفكرة ترهن إرادة الشعوب بحيل أصحاب النفوذ. أي ستكون مجرد إدارة بالإنابة عن فاعليها الأصليين إنْ وجدوا.

وبالمحصلة تقضي سلطة التفاهة على التنوع، لأنَّ الأخير يعني فُرصاً للاختلاف الخصب ولذلك كان لسلطات ما بعد الربيع العربي أن تستعيد ذاكرة القهر والاستبداد سريعاً. لأنَّ التفاهة هي الضامن الوحيد لبقائهم في مقاعد الحكم، هي أفيون النخب السياسية. لدرجة أنهم أشاعوا مناخ الجهل والتعتيم، فالشعوب الجاهلة تحمل البلهاء فوق الأكتاف، بينما يزدادون تحكماً في مصائر من حملوهم. يؤكد ذلك مناخُ التقليد والطاعة العمياء، فالتافهون لا يحتملون إبداعاً وتطويراً حقيقيين. المبدعون يهددون البلهاء، وينتقصون سلطتهم. وهو ما يجعل التفاهة نمطاً يطبع نمط الحكم مهما تكن مواصفاته، لأن الجاهل قد يكون تكنوقراطياً أو رجل دين أو خبيراً وفوق ذلك يتبع أساليب التفاهة في ممارسة السلطة.

وعلى المستوى الدولي تمكنت القوى العظمى مثل أمريكا من تنصيب رؤساء أنظممتها من قليلي الموهبة كإدارة بوش وترامب وغيرهما، فقد احتلت دولاً ونهبت مجتمعات ومزقتها إلى قبائل متناحرة. والمنطقة العربية هي الظلال الجغرافية لهذه السياسات التي تصنعها التفاهة المعولمة. وليست الحروب الإقليمية بعيدة عن هذا، بل التفاهة بإمكانها أنْ تصنع حروباً طاحنة لا تبقي ولا تذر. غدا ذلك ممكنا لأنَّ صورة واقعنا رسمت مع مفاهيم التواصل وتبادل التأثيرات، ولكن بهذه المرحلة المتأخرة خضعت الأمور- بعبارة فيريليو- لسياسات الإخفاء politics of disappearance[76].

إذا كانت مظاهر التفاهة وضعاً راهناً، فالتفاهة دورةٌ ستؤول إلى الانزواء، لأن الإنسانية تاريخياً لن تبلغ مراحلها المستقبلية بالطريقة ذاتها. فوراء أية تفاهة أسبابُ تدعو إلى غربلة المفاهيم الرئيسة في حياتنا. مما يجدد التساؤل الدائم كيف نخلق

---

[75] -Paul Feyerabend, Against Method: Outline of an Anarchistic Theory of Knowledge, Verso, London 1993, P3 8.

[76] -Paul Virilio, Negative Horizon :An Essay in Dromoscopy, Translated by Michael Degener, Continuum, London- New York, 2005 -P165

مجتمعات بشرية مبدعة؟ وذلك لن يتم إلاَّ بخلق مناخٍ وفكرٍ مواتين لهذا التميُز[77]. الوضع أدعى إلى ممارسة التفلسف بصوره أكثر راديكاليةً، بحيث يتعمق جذور التفاهات ويفكك تكلسها وأبنيتها. التفاهة لن تنتهي بالضرورة لكنها ستتعرى بالتأكيد. فالإنسان صانع عتيد للحماقات، لكنها حينما تغطِّي وجه الحياة، فلابد من نشاطٍ فكري يُذيب أنماطها التي تخفِي تصورات بدائية.

التفاهة والحقيقة

ثمة قضايا أخيرة: هل تحدد التفاهة أية حقيقة؟ هل حين تفرز التفاهة مفاهيم حول حقيقة ما تتبلور ماهيتها؟ وإذا تصورنا الأمر أبعد من ذلك، هل هناك حقيقة تافهة وأخرى غير ذلك؟ ما الذي يمسك بهذا التصنيف أصلاً ؟ إضافة إلى هذا، هل يجوز وصف التفاهة بالحقيقة؟ وبخاصة أنَّ التفاهة تحيط بها ملابسات اجتماعية وسياسية واضحة.

بحدِّ ذاتها ليست التفاهة "حقيقةً" بمعناها الفلسفي ولن تكون. لو كانت كذلك، لاستطاعت تحديد ماهية علاقات وأبنية في المجتمعات الإنسانية. وبالمناسبة هذا قد يحدث فعلاً، لكن التفاهة بالمقام الأول - مثلما أبرزت سلفاً- سلطة أو إحدى قوى السلطة العاملة ضمن المناخ الثقافي المهيمن. بدليل انكشاف جوانبها بوصفها عملية تتلخص في صور تبرز كيف يعيش الإنسان وبأية آليات يسير النظام السياسي الذي يستعملها ضمن دوائر عمله.

علماً بأنَّ الحقيقة المقصودة هنا لا تخلو من جانب موضوعي. والتفاهة من تلك الزاوية قد لا يتم الاتفاق حولها معرفياً ولا فلسيفياً. وبالمثل لا ترتكن الحقيقة في المقابل إلى ظروف نوعية غالباً. إن التفاهة هي ابنة الظروف بامتياز تاريخي، ولئن كانت تفعل شيئاً مؤثراً، فهي تُؤثر بالأوضاع التي تفرضها. أما الحقيقة فتؤسس لسواها من أنشطةٍ، بدليل كون الحقائق حمالِّة نتائج بحسب كونها مرجعاً وقادرة على انتاج معان أخرى.

ولكن مازال السؤال ناشطاً: ما هو الحقيقي في التفاهة؟ يقول الأديب الروسي انطون تشيكوف" لا يوجد أكثر فظاعة وإهانة ومدعاة للكآبة من التفاهة "... بناء على هذا الكلام نعدل صيغة الاستفهام هكذا: ما الذي يكْمُن فيما هو تافه حتى نشعر بتلك الأشياء؟! التفاهة مأساة كائن يجسد هذه الحالة دون فهم لكونه تحت تأثير وهم نفسي

---

[77] - Si Kahn, Creative Community Organizing , A Guide for Robble –Rousers, Activits and Quiet Lovers of Justice, Demos: Berrett-Koehler Publishers, Inc. San Francisco a BK Currents book U.S. A, 2010. PP 147- 160.

نشط. والمأساة تباعاً – بكلام تشيكوف- لها طابع المُذهل والمُريع. وجه الدلالة أن الإنسان يختار انعدام القيمة كمعادل لوجوده الحي. وأنه سيكون عرضَّاً، أي يقايض وجوده الجوهري مقابل الزيف.

ذلك بسبب:

1- أنَّ التافه يختار الفرص السهلة للوجود ولا يقوَّى على الحرية. ويا له من بؤسٍ مزرٍ يغطُ فيه الإنسان. وهذا ناتج عن انعدام تحقيق الذات، فلو كانت ذاته ممتلئة لاستطاع أن يعبر عنن كيانه ولا يرتكه نهباً للتفاهة.

2- أنَّ الإنسان التافه يصبح تابعاً لغيره صاحب السلطة والغلبة، وهذه أدنى مكانة يضع كائن عاقل نفسه فيها. وهو ما يترتب عليه فقدان الاستقلال.

3- يهدر إمكانية المسؤولية تجاه الأحداث والأعمال. فليست (المسؤولية) تبعات فعل يتحملها الفردُ، لكنها قوةٌ فعل قادر على التعبير عن نفسه. وهي كذلك ليست مسألة أخلاقية، بل مسألة إبداعية وتحررية بهذه الفحوى.

إنَّ الإهانة ليست فقط للتافهين، فقد لا يشعر بها من هم كذلك، لكنها نوع من الرثاء على الإنسان داخلنا. إننا نتقبل العزاء فيما هو تافه داخلنا يومياً. إن ثمة شعوراً بالإهانة قد يقع فيه الآخر الذي هو نحن عادةً. فصورة الآخر تسكننا طوال الوقت، هو نحن وجهاً لوجه. وعندما نراه في محل تفاهةٍ، لن يكون الضرر الوجودي إلاَّ داخلنا، نحن نشعر به كبقايا لمرارة بعيدةِ الآثار تجمعنا معاً. والكآبة هي الترجمة التي ترسب في شعورنا هذا الإحساس.

والكآبة قد تكون ميتافيزيقية بالمثل، لكوْن مقولة الإنسان بالتجريد قد غاصت في الأوحال. كما أنه لا يوجد أمامنا غير الخروج من التفاهة ونزعها من جذورها. لقد بدت الإنسانية وقد لحِق بها الأذى في مجملها طالما تُوضع في هذا التزييف. وإذا كان ذلك ليس إلاَّ لأهداف قصيرة النظر، فكل هدف يختبر وجوده على هذا الطريق. وبخاصة أن الاحساس لا يكون للذات المنفردة بأفعالها، لكنها جزء من أفقنا الثقافي الذي لا ينفصل عنا ولا ننفصل عنه.

والإنسان حين يشعر بالتفاهة، فهو يدرك فجأ مصير الأشياء وعلاقاتها ويتساءل: لماذا هذا الوضع؟ هل هناك من دفع التافهين إلى ذلك؟ الأسئلة اسئلة أشبه بالإيمان بشيء ما. لأنَّ التفاهة ليست منتمية إلى قرار، بل تحرك ايماننا بقدرة الذات على الأصالة وعدم الركون إلى التبعية. فغير التافِه يجسد هذا الإيمان من خلال أعماله. لا يدرك المقدمات ولا العوائق، لكنه يتحمل مسؤولية ما يفعل. ولهذا لن يكون تافهاً بحكم تجسيده للإنسانية المبدعة داخله.

ولذلك التفاهة هي سقوط مدو لاختبار حيوية الإنسانية في أعماقنا. ورغم صعوبة معرفة هذه الإنسانية الحرة إلاَّ أنَّ التفاهة تتناساها وتقلل من شأنها. وحين تعترف بها، فهي تعترف بالجوانب الإنسانية كمظهر لا قيمة له. ولذلك فحقيقة التفاهة هي لحظة انكشاف أشبه بالصدمة لمن يتابع. فهي طوال عرضها الخارجي تستغفل هذا الإنسان أو ذاك. تجذبه بكافة المغريات والإغراق كما نوهنا من قبل. وبالتالي لن يكون ثمة إنسان تافه قضاءً وقدراً، فهو بإرادته الخاصة لن يكون كذلك شريطة أن تكون الحرية أصالة وجوده دون قهر.

لكن الثقافة الغالبة هي من تصنع "نماذج التفاهة" إلى درجة الزحام. وفي حالة سياسات القهر والاستبداد تضمن مواصلة وجودها، وتنزع من مواطنيها أصالة الحياة وتلقائية الأفعال وتضعهم في قوالب بهلوانية ليس أكثر. ولذلك ستجد في دائرة التفاهات من ينذر نفسه للقيام بكل الأدوار، ومن يعمل على هذا الصعيد بدأب منقطع النظير.

هنا فإن سؤال الحقيقة نفسه(معرفة الحقيقة) غير مطروقٍ، لكوننا في حالةٍ من تزييف المعايير واستهلاك الأصالة. على أن الأخيرة هي دائرة من الإبداع وقوة الفهم وتجاوز المؤقت والنظر بعيداً حيث توقُّع النتائج وإلى ماذا ستصير الأمور. كل ذلك قد يختلط على الإنسان إذ يعيش في سلسلة من الصور الزائفة المعكوسة التي تردد أصداء بعضها البعض.

وبخاصة أن هناك تدنياً يصاحب كلِّ تافه تجاه نفسه وتجاه الحياة، لأنَّ هدفه الذي يغلفه بلعاب الاغواء: كيف استفيد من هذا الوضع أو ذاك؟ وبأية وسيلة أستطيع تأدية الدور كما لو كان حقيقياً؟ ولهذا قد يُفاجَأ أصحاب السلطة – وهم يدركون جيداً- بقدرات التافهين على تمثيل الأدوار المنوطة بهم. بل قد يبدعون في حالات التفاهة العامة ويأتون بأعمال غير مسبوقة. وقد يجيدون المهام حتى النهاية ولا يستطيعون الخروج منها أمام أنفسهم!!

الغريب في هكذا مآل أنْ يتحول الحقيقي إلى شيء زائفٍ يصبح صيداً سهلاً لكل تفاهة ممكنة. أي أنَّ التافهين لا يؤدواً أدواراً من هذا القبيل فقط، بل يميّعون ماهية الحقائق. وبوصفها إرادة خادعة، فالتفاهة تجهز على ما هو فاعل من تلك الجهة حيث تتوجه إلى نقيضه تماماً. إن قيمة الأشياء والرموز ليست لها مكانة معترف بها من كل الناس، لكنها قد تكون علامات تجارية على سلع جذابة. واللافت عندئذ هو درجة الشيوع والرواج فقط لما ينتج عن ذلك. والتفاهة لن يُعرف مصيرها إلاَّ بعد "فوات الأوان".

وإذا كانا ندرك أهمية الحقائق بالنسبة للمعرفة والحياة، فالتفاهة تحط من قدرها، تستعملها بشكل احتيالي، فتضيع جوهرها. حينما يظهر التافه متحدثاً عن واقع ما، عن

فكرة ما، فهو لا يحلل ولا يبرز الموضوع، إنما ينقله إلى مرحلة عدم الفهم واغفال جانبه الأصيل. وإنْ كان لا يوجد ثمة فاصل بين الحقيقة والسلطة (قوة الأهمية أو الضرورة)، فالتافهون يدركون ذلك مبكراً. ولذلك يميّع البحث عن الحقيقة لصالح صورتها لدى السلطة، فالسلطة هي من تحدد وترسم صور الحقيقة، لأنه يعرف أنه هو الرابح الأكبر من ذلك.

ويتجنب التافهون الأصالة بالفعل، لكنهم يتعاملون بطريقة السلطة التي لا تستطيع الرؤية عن كثب. فهي مأخوذة بانحيازاتها سلفاً. وهذه النقطة هي أكثر ما يستثمر فيه التافهون. إذ يلتقطونها مترجمين ذلك إلى حيل وقدرات استعراضية. ولذلك يتناسون ما دون ذلك، التاريخ فقط هو من يضعهم في حجمهم الفعلي، وكذلك قد يتم ذلك إذا نضجت قدرةُ المجتمعات على الاعتراف والشفافية.

ولأن التفاهة تحتل مرتبة الهامشي عبر الأشياء الضرورية، إذ ليست موجودة في فراغ، فهي تحتاج شفافية ترتبط بتطوير المعايير واعادة نقد المجال العام وتأسيسه. لذلك يمثل الاعترافُrecognition قوة مكاشفة غير عادية لمعرفة طبيعة المجتمعات ووضع الآخرين في دائرة الاهتمام. وسياسات الاعتراف كعملية موسعة ترتبط بقضايا الإنسان والعدالة وحقوق الآخرين، ولذلك لا تغني عنه إعادة توزيع الأدوار ولا يكفي الاعتراف الجزئي، فمشاركة الجميع غي كل المجالات بلا تفرقة هي الأساس كما ترى نانسي فريزر[78].

فالتفاهة تضمر موقفاً سلبياً تجاه الآخر، حيث ترمي به إلى حيز البلاهة وفقدان التمييز. ولذلك هي في سرها إنكار لقدرات التعقل والنقد، باستثارة الصدمات الخاطفة بما يجري. وهذه مزيج من الاندهاش وتغييب الوعي وخطف المشهد، أي أن التفاهة سرقة بملء الكلمة بدءاً من اهتبال الفرص انقضاضاً على الأشياء المهمة، ومروراً بالظهور المتواصل أمام الرؤية عبر مساحات الاعلام وليس انتهاءً بجني الأرباح من الأدوار فقط.

لكن الخطورة أنْ يسعى التافهون لتتفيه سواهم، أي يضمرون قوة لصناعة الحقيقة بإغراق الآخرين فيما يفعلون وإلاَّ لما اكتسبوا أرضاً جديدة. وهو دفاع ضمني عن وجودهم ويحمل لونا من التبرير البرجماتي لما يفعلون. فالآخرون قد يفشلون في تقدير هويتهم وأصالتهم ويقعون في منزلق التفاهة بإساءة التعامل مع الثقافة، وترويج

---

[78]-Nancy Fraser and Axel Honneth, Redistribution or Recognition?: A Political-Philosophical Exchange, Translated by Joel Galb, James Ingram, and Christiane Wilke ,Verso, London· New York, 2002. PP 7- 21.

بضاعة ثقافية كاسدة. والتافهون يمارسون ذلك باستثمار الظروف الاجتماعية للمهمَّشين والمهملّين في المجتمعات الإنسانية نتيجة أوضاع طبقية[79].

والخطورة أيضاً أنْ تتشبه التفاهة بالحقائق، فتفرّخ تصورات ورؤى حول المجتمع. وبهذه الدرجة يصبح المجتمع مهدَّداً من الداخل بإعادة هيكلة العلاقات والأبنية التي يطرحها. فمع هيمنة الثقافة سيكون الأفراد حاملي هذا الميراث، ولذلك لن تتخلص المجتمعات من التفاهة بسهولة إلاَّ بمقدار ما ترسخت. فهي تتشبث بكل ما يفرز وجودها ويجعلها سمة حقبةٍ بمجملها كما قلت. والمفارقة أن عصرنا رغم أنه اسهم في شيوع التفاهة إلاَّ أنه عصر التطور اللافت في حقوق الإنسان وفرص التحرر والابداع بلا حدود. وأخذ يعمل على تصعيد المقاومة لكل أنواع الإقصاء وبالتالي بوصفه عصراً للنضال من أجل الاعتراف struggle for recognition سيلفظ كل ما يهدد الآخرين، حيث شكل النضال صورة نموذجية paradigmatic للصراع السياسي منذ النصف الأخير للقرن العشرين[80].

ربما رأي نانسي فريزر مهم، لكن الأهم هي فكرة النضال والمقاومة، لأنَّ التفاهة تحتاج نضالاً حتى الرمق الأخير. ولئن كانت تلتهم فاعلية الإنسان وتجعله وجوداً غثاً بما للعبارة من معنى، فالنضال مكافحة للآفات مثل مكافحة الأمراض القاتلة، هي مقاومة ما يجعلنا تافهين. ولاسيما أن في حياتنا ما يستحق النضال. وإذا اشتدت تلك المقاومة، فلن تنتشر التفاهة في سكون المجتمعات، ولن تأتي من أية نقطة ممكنة لصورة العلاقات والسلطة.

ولو كانت المجتمعات تحافظ على وجودها بقوة بناء الإنسان، فلن تستطيع التفاهة إضعاف هذا البناء. لذلك فالأنظمة الحاكمة التي تروج للتفاهة لإبعاد الناس عن سياساتها، لا تدرك– نتيجة الجهل- أنَّها بذلك تهدم كيان المجتمع. كما أن الإنسان بموقع شفافية المسؤولية ما كان ليروّج لأيَّة تفاهة أو أنْ يصبح مصدراً لها. ولذلك يجب على المجتمعات أن تقبل بفكرة المشاركة برأي نانسي فريزر، وألاَّ تكون أنظمتها أنظمة طاردة للتفاعل.

---

[79] -Andrew Sayer, Class, moral worth and Recognition, In: Terry Lovell(editor) (Mis)recognition, Social Inequality and Social Justice, Nancy Fraser and Pierre Bourdieu (Critical realism: interventions, Routledge: New York, PP 88 - 89.

[80] - Nancy Fraser, Justice Interruptus, Critical Reflections on the "Postsocialist" Condition, Routeldge, New York, London, 1997.P 12.

عكس هذا يدفع الأفراد إلى تسلُّق السلم الخلفي، سلم التفاهة حتى ينالوا الحظوة والتمتع ببقايا السلطة بشكل مقلوب. أي أن قوة التافه تعكس صورة المجتمع أمام نفسه. لأنها صنيعة صورة مزيفة هم مجموعة من الأفراد ليس أقل. والانعكاس reflection يعطي طابعاً إجماليا لما يمارسه الإنسان. ولذلك رغم رواج قوة التفاهة إلاَّ أنها تفترض مضادها الحيوي من الاستنكار والشجب. كل تفاهة تولِّد معها معياراً ما تفتقده أو تدعو إلى تضييعه. لكن المعايير لا تنهدم بسهولة، لأنها تصمد أمام تحولات الواقع وتطلب منه الإجابة عن الأسئلة التي تثيرها المعايير.

وهذا يعني بخلفية التفاهة- لو عدنا إلى المسألة الرئيسة- أنَّ هناك فارقاً بين" الحقيقية والحقيقي". الحقيقة مفهوم أو فكرة أو شيء في ذاته، وباستطاعته أنْ يحمل سواه محدداً طبيعة العلاقة بينهما. ولا ينفصل المعنى عن الشيء كمعادل في أفق المعرفة، وهذا يقوم عليه البناء التصوري للعالم والعقل. والفكرة تجري بوضوح أكثر في المجال العلمي، حيث تكون الحقيقة بجانبها المعرفي ضمن النظريات العلمية. تلك القائمة على مشكلة وحلها وتكوين تصورات واختبار صدق النتائج.

كان اينشتين يردد دوماً أنه يهدف إلى التوصل إلى نظرية تفسر الكون بمجمله، عن طريق نظرية بسيطة وشاملة (نظرية المجال الموحد theory of unified field) أو بواسطة مبادئ صورية كلية universal formal principles تفسر الظواهر[81]. وصحيح ليس ثمة حقائق موضوعية وكليَّة، إلاَّ أنَّ العلم يعطينا معرفة بالواقع أقرب ما تكون إلى مفاهيم ترسم صورة مغايرة عنه. هي ما يسميها ماكس بلانك Max Blank الصورة العلمية للواقع لا الواقع ذاته كما هو.

التفاهة من تلك الجهة لا تقدم نفسها كحقيقة مثلما نوهت، ولا كمفهوم يطرح دلالاته من أول وهلة، إنَّ مقياس التحقق منها والوعي بها ليس يوجد في هذا الإطار. ولكونها تشتغل على المعايير ونقيضها، فهي لا تثبت أيَّ معيار للعمل ولا يهمها ولا يعنيها ابتداء هذا الأمر. كما أنها غير ثابتة ولا تدع سواها من أنشطة تحدد مصيرها، فبموجب أنها حالة - طالت أم قصرت- وليست أساسية, فهي تستغل الوقت في تكريس وجودها ورموزها.

فكما أنَّ التفاهة تستند في انتشارها إلى قدرات النظام الاجتماعي والسياسي، فلعلَّها تتوقف عليه كذلك بالنسبة للصورة التي تحققها. ولهذا يرتهن أصحاب

---

[81] - Albert Einstein, The Ultimate Quotable Einstein, collected and edited by Alice Calaprice ; with a foreword by Freeman Dyson, Princeton university press, Princeton and Oxford, 2011, p 352.

الممارسات التافهة بما يجسدون، ويظل يصدِّقون ما يقومون به لإقناع الآخرين بأن أفعالهم هي الحقيقة. أي بدلاً من مواجهتها بمواقف غير مريحة، يأتي التكرار كنوع من التغطية على السلبيات. المضمون يقول: طالما كانت هناك رائحة تفاهة فيما نتابع، فتواتر حالاتها هي الإحساس بكونها فعلية لا تشوبها شائبة. وحين تنجح في الإفلات من المقاومة تكتسب مناعة ضد التردد فيما تمارس.

وقوام تلك الوضعية هو التوظيفfunctioning، ليس ثمة تفاهة في مجال عام دون توظيف من قبل السلطة. لأن التفاهة عند تلك الدرجة لا تحتمل إلاّ وجهين. إمَّا أن تكون خاصة بالأفراد وفي هذا المستوى تصبح غير مؤثرة وغالباً ما تتلقفها الأخلاق وتلاحق الفرد كظله. وإما أن تكون سياقاً قابل للدخول فيه وهنا ستكون ثمة وظيفة تربط الممارسات لتأدية الأغراض منها.

والتفاهة كنوع من التوظيف ليست حقيقة أيضاً، لكنها إمكانية رديفة لما تمارس السلطة من أداء. فَلكي تمرر وجودها، فعليها أن تخلق قاعدة بديلة تؤدي هذا الأداء أو تشغل مساحته. إذن التفاهة من تلك الجهة هي بديل للسلطة ويسهل مقاومتها إذا تم نقد السلطة نقداً صارماً.

وبموجب التكوين المنطوية عليه سرعان ما تنكشف كل تفاهة بأنها لا يجب أن تحدث. فهي دوماً تطلب زبائن جدداً، وتتوقف على قدرات الأفراد وفهمهم للأوضاع وهنا موطئ الخطأ. حيث لا يقتنع بها الأفراد كما أن تقوية الحرية وممارساتها أمران كفيلان بمحاصرة وجودها. ولذلك فالتوظيف لا يصمد طويلاً. لكن خطورته أنه لو تحول إلى ثقافة يتسرب إلى تاريخ الوعي، حيث يصبح أحد آليات التأثير في المناخ العام. هنا تنقلب التفاهة إلى موضوع للسخرية بعرض الإنسانية ولا سيما مع تقارب جوانبها. إذ أننا لا ننفصل عن إنسانية كونية نحن جزء من مشهدها العالمي. وأنها حين تولد في ابداعات جديدة كما في التقنيات ووسائل الاتصال إنما تعري كل تفاهة محتملة في أي مكان. إذن الحقيقة أن الإنسان يجدد عالمه وأنه يمتلك القوة على الوعي بزيف التفاهة.

خاتمة:(الفلسفة كعَقْار مضادٍ للتفاهة)

الفلسفة قدرة إنسانية فذة على كشف التفاهات، بل إنَّ ما ينتمي إليها (سواء أكانت مبادئ أم أفكاراً) يختلف عما هو تافه. وفي منظوره الكوني يعدُّ التفلسف تمريناً إنسانياً على الأصالة. لأنَّ كل فلسفة كانت تخترع أصالتها الفريدة منذ اليونان حتى الآن، وبجميع الأحوال كانت تحرك شيئاً ثرَّياً في العقل، فلم يكن العقلُ هو العقل منذ ذلك الحين وإلاَّ لجاءت التفاهة هي التفاهة!!

ليس هناك عقلٌ غير متطور(لأنه يقبل كافة الجوانب)، إنما هناك زوايا أخرى لم نعرفها عنه. يقول العلم إنَّ حوالي خمسة وعشرين بالمائة فقط يعرفها الإنسان عن عقله وطاقاته. نسبةٌ قليلةٌ هي الفاعلة إذ أبدعت النظريات والمعارف والقوانين، وبالوقت نفسه أفرزت رُكاماً لا قبل للإنسانية به من التفاهات. ومازالت الإنسانية تتوحل بما أفرزه العقل حيث الديكتاتوريات والأنظمة الفاشية والقهر وسطحية الفنون والعلاقات والمذاهب (كنتاجٍ للحداثة بأنماطها).

ومع ذلك لم نجد فيلسوفاً يصنع التفاهات، وإنْ ترك بعضها فسرعان ما ينتقده آخر أشد الانتقاد. والفيلسوف اللاحق يشق دروباً للعقل ما كان الأول ليدركها، إنَّ التفاهة تتسلل نتيجة الانجرار وراء الأوهام والمعتقدات الشائعة(doxa) فكل فيلسوف هو ظاهرةُ تمرُد على ثقافة العصر. دوماً لا تقتفي الفلسفة آثار الجموع، إنما تكسر أطرها بشكل قاس وجذري. يؤكد نيتشه: لا تتبعوني... أينما وجتموني اقتلوني ... حينئذ ستجدون أنفسكم!!

1- التفاهة تحت مجهر الفلسفة تعري طبيعة المجتمعات وتنزع عنها غطاءها البرَّاق. لأنَّ مجالاً عاماً لا يسمح بالتافه ما لم تكُن أسسُه هشةً، وهذا ناجم عن غياب الأسئلة والحوارات التنويرية العميقة. حيث الخوف من الأسئلة المصيرية حول التاريخ رغبةً في الركود(إدمان السكون التاريخي).
2- على الفلسفة أنْ تعود إلى تشغيل حياتها اليومية، ورغم أنَّ هذا فن سقراطي قديم إلاَّ أنه قابل للتجدد مع وسائط الاتصال والمشاركة في عصرنا الراهن. لأن التفاهات تستغل فقدان النظرة الكلية لتبدأ في النمو، ولو توافرت الرؤية الكلية، ستتاح عندئذ مقاومتها ورسم خريطتها وجذورها.
3- إذا كانت التفاهة مرتبطةً بالسلطة، فذلك بقدر ما تستطيع الأخيرةُ ترويجها. والفلسفة تحرر أيَّة علاقة بالسلطة. وهذا معناه أن الفلسفة رؤيةٌ في تحليل انحراف العلاقة وأوجهها الغائبة وكيف تتأزَّخ. وبهذا تّحوْل دون أنْ تقبع السلطة فوق أنفاس الأفراد لدرجة الاختناق. ولا يجري هذا بعنف، فالفلسفة ترى العقل حراً، ولا تصنع أصناماً، فقط تجعل من العقل قوةً بجميع الوجوه الممكنة. والفلسفة بذلك تحصِّن العقل ضد التفاهات.
4- غياب الفلسفة في المجتمعات الأقل تطوراً ترك الثقافة نهباً للطفيليين لملء النشاط العقلي. وبخلاف الفلسفة لا نستطيع ايجاد عقلانية تأخذ بالتنوع الثقافي. الفلسفة تقرأ دلالات الأشياء ولا تتركها في "حاويات ثقافية" صدئة بأسماء مستعارة (السياسية – الخبرة – الفكر، الأيديولوجيا، المذاهب...).
5- صحيح أنَّ التفاهة تصنَّف في مكانة أدنى، لكنها ترتبط بأبرز الأنشطة الإنسانية. وانتشارها بالمجال العام يعني خلَّلا من جنس تكوينه، وهو ما يصب في انعاش التفاهات. لكن تحديد هذا التكوين يعرفنا كيف نبدأ مقاومتها فلسفياً.

6- اكتشاف "العقل اليومي" - إن صح التعبير- هو اللبنة الأولى لممارسة التفكير الناقد. وهنا السؤال الحيوي: هل يمكن طرح فكرة بناء "العقل اليومي"؟! فهو لا يعني أنَّه متناقض من يومٍ لآخر، لكنه يمثل وجه لعقلانيةٍ تأخذ بالنسبي والطارئ في اطار توافر المعارف وإدارة الخطط لحل المشكلات. ذلك أنَّ العقل التاريخي - إن صح ذلك أيضاً- يتجاوز الزمني ولا يلتفت لليومي. وأزمة الثقافة العربية أنها تسقُط سقوطاً ذريعاً في التفكير اليومي وليس العكس. أي هي تترك اليوميات للطفيليين رغم أنَّ أحداثها قد تتراكم كبناء تاريخي يصعب هدمه.

ولنلاحظ أنَّ الثقافة العربية كانت في الماضي ذاخرةً باليوميات والحوليات والوقائع والآثار والتراجم وأحوال الدُهور وأخبار الممالك والحروب والبشر. مثل اسهام الجبرتي(عجائب الآثار في التراجم والأخبار) وغيره للمقريزي وابن حوقل والدميري وابن خلدون(ديوان المبتدأ والخبر...). وفي الفلسفة المعاصرة هناك سلافُوي جيجك (الفيلسوف الجوَّال) وإميل سيوران (الميتافيزيقي المتشرد) وميشل سار وميشل دي سارتو(أداء الحياة اليومية)، حيث تعد اليوميات الفلسفية فنوناً نقدية تغربل المعتقدات وتبرز ثراء الاختلاف وتطرح التواصل الحُر الخلاَّق.

7- مقاومة التفاهة تتطلب فتح فضاءات جديدة للتفلسف مثل المقاهي والنوادي الفلسفية والحوارات الفكرية بالشارع والساحات العامة لمعرفة: كيف يفكر الناس في مشكلاتهم؟ وأية معتقدات تسحبهم إلى التفاهة؟ وذلك أن هناك تفاهات راسخة يجب تعرية حاضنتها العامة. ويأتي بهذا المجال تعليم الفلسفة للأطفال كبرامج لتنمية التفكير المنطقي وتنمية احساساتهم بالحياة وكشف خلفيات الأسئلة التي يطرحُونها.

8- لا مجال عمومي ناجح دون فلسفةٍ، لأن الفلسفة هي فن التعامل مع الأفكار والتصورات خارج الأفراد. وإذا كانت التفاهة تنشط في هذا الخارج لإفراز ما تحمله من نفايات، فالتفلسف يترك بذوراً لوعي مستقبلي إزاء أخطارها ولماذا تتضخم في أشكال من الهيمنة والجمود.

أهم المراجع

أولاً: المراجع العربية:

- ابن منظور، لسان العرب، الجزء الثاني، تحقيق نخبة من الأساتذة، دار المعارف، القاهرة، د. ت.

- أبو الفرج بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين(من الفقهاء والمفسرين والرواة والمحدثين والشعراء والمتأدبين والكتاب والمعلمين والتجار والمتسببين وطوائف تتصل للغفلة بسبب متين)، شرح وتعليق عبد الأمير مهنا، دار الفكر اللبناني، بيروت1990.

- أرسطو، دعوة للفلسفة (كتاب مفقود لأرسطو)، تقديم وتعليق وشرح عبد الغفار مكاوي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، د. ت.

- جون اسكانلان، النفايات: مدخل إلى الشك والخطأ والعبث، ترجمة محمد زياد كبة، مشروع كلمة، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الطبعة الأولى 2017.

- جيل ليبوفتسكي، عصر الفراغ، الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة ، ترجمة حافظ ادو خراز، مركز نماء للدراسات والبحوث، بيروت لبنان الطبعة الأولى 2018.

- الذباب الإلكتروني، الويكيبيديا على الرابط التالي:
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B0%D8%A8%D8%A7%D8%A8_%D8%A5%D9%84%D9%83%D8%AA%D8%B1%D9%88%D9%86%D9%8A
- لوريتا نابوليوني، الاقتصاد العالمي الخفي: رأسمالية جديدة (تجارة الرقيق والجنس- فضيحة القروض العقارية- القرصنة الأدبية والدموية- تبييض الأموال- تجارة المخدرات)، ترجمة لبنى حامد، مراجعة وتحرير مركز التعريب والبرمجة، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2010.

- ميشال دو سارتو، ابتكار الحياة اليومية، فنون الأداء العملي، ترجمة وتعليق وتقديم محمد شوقي الزين، الدار العربية للعلوم- بيرةت ناشرون، منشورات الاختلاف- الجزائر، دار الأمان- الرباط الطبعة الأولى 2011.

- ميلان كونديرا، حفلة التفاهة، ترجمة معن عاقل، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب- بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2014.

- نديم منصوري، الاستحمار الإلكتروني، منتدى المعارف للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان الطبعة الأولى 2016.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- **Alain Deneault, Pourquoi Les Mediocres Ont Pris Le Pouvoir?: Entretien avec Victoria Gairin, Le Point, 16 octore 2016, mise à jour le 5 septembre 2019.**

https://www.luxediteur.com/pourquoi-les-mediocres-ont-pris-le-pouvoir/
- Alain Deneault,'' La Médiocratie Génére et Promeut un Citoyen Résolument Moyen'', Vendredi, 16 Octobre, 2015: https://www.humanite.fr/alain-deneault-la-mediocratie-genere-et-promeut-un-citoyen-resolument-moyen-587074
- Alain Deneault, L'appréhension d'une ère de la perversion Pourquoi philosopher par analogies?, en: Georg Simmel et les sciences de la cultureâ, Sous la direction de Jean-François Côté et Alain Deneault, Les Presses de l'Université Laval 2010.
- Alain Deneault, La médiocratie, Lux, Montréal, 2015. https://www.ledevoir.com/lire/453856/critique-la-novlangue-de-la-mediocratie
- Alain Deneault, Politiques de l'extrême centre, Lux, Montréal 2016. https://en.wikipedia.org/wiki/Alain Deneault
- Albert Einstein, The Ultimate Quotable Einstein, collected and edited by Alice Calaprice ; with a foreword by Freeman Dyson, Princeton university press, Princeton and Oxford, 2011.
- Andrew Sayer, Class, moral worth and Recognition, In: Terry Lovell(editor) (Mis)recognition, Social Inequality and Social Justice, Nancy Fraser and Pierre Bourdieu (Critical realism: interventions, Routledge: New York 2007.

- Antonio Grarnsci, Philosophy, Common sense, Language and folklore, In: The Gramsci Reader, Selected Writings 1916-1935, edited by David Forgacs, New York University press, New York 2000.
- Axel Honneth, Disrespect: The Normative Foundations of Critical Theory, Polity Press, Cambridge, 2007.
- Axel Honneth, Pathologies of Reason: On the Legacy of Critical Theory, translated by James Ingram and others, Columbia University Press, New York, 2009.
- Axel Honneth, The Struggle for Recognition :The Moral Grammar of Social Conflicts, Translated by Joel Anderson ,The MIT Press :Cambridge, Massachusetts, Polity Press 1995.
- Axel Honneth, Thomas McCarthy, Claus Offe, and Albrecht Wellmer(editors), Cultural-Political Interventions in the Unfinished Project of Enlightenment, translations by Barbara Fultner, The MIT Press, Cambridge, Massachusetts, and London, England, Massachusetts Institute of Technology 1992.
- Cornelius Castoriadis, The Rising Tide of Insignificancy, (The Big Sleep), translated from the French and edited anonymously as a public service, 1999.
- Cornelus C astoriadis Political And Social Writings, Translated And Edited by David Ames Curtis, Volume 3, 1961-1979: Recommencing the Revolution: From Socialism to the Autonomous Society,

University of Minnesota Press, Minneapolis, London University of Minnesota Press, Minneapolis, London 1993.

- Danielle Petherbridge, Introduction: Axel Honneth's Project of Critical theory, In:Danielle Petherbridge(editor), Axel Honneth: Critical Essays: With a Reply by Axel Honneth (Social and Critical Theory A Critical Horizons Book Series-Volume 12),Brill :Leiden - Boston 2011.
- David Graeber , Bullshit Jobs :A Theory, London, May 15 , 2018.
- Definition of banality, In : Merriam Webster dictionary on this link: (https://www.merriam-webster.com/dictionary/banality).
- Eduardo Galeano , Open Veins of Latin America Five Centuries Of The Pillage 0f A Continent, Translated by Cedric Belfrage,(25th Anniversary Edition Forward by Isabel Allende), Latin America Bureau, London1997.
- G . W. Friedrich Hegel, Elements of the Philosophy of Right, Edited by Allenw. Wood, Translated by H. B. Nisbet, Cambridge University Press, London - New York 1991.
- Gilles Deleuze, Desert Islands and Other Texts 1953-1974 , Semiotext(e) The MIT Press, Cambridge, Mass. and London, England, 2007.

- **Gills Delueze, Difference and Repitition, Translated by Paul Patton, Columbia University Press, New York, 1994.**
- **Hannah Arendt, Eichmann In Jerusalem, A Report On the Banality of Evil, (Revised and Enlarged Edition), The Viking Press, New York 1964.**
- **Hannah Arendt, Responsibility and Judgment, Edited and with an Introduction by Jerome Kohn, Schocken Books, New York 2003.**
- **Hannah Arendt, The Jewish Writings, Edited by Jerome Kahn and Ron - H. Feldman, Schocken Books, New York 2007.**
- **Heraclitus, Cosmic Fragments, Cambridge University Press, London 1954.**
- **Immanuel Kant, Religion Within the Boundaries of Mere Reason and Other Writings,(Series of Cambridge texts of the history of philosophy), Translated and Edited by Allen Wood, George Di Giovanni, With an Introduction by Robert Merrihew Adams, Cambridge University Press 1998.**
- **Immanuel Kant, An Answer to the Question: "What is Enlightenment?", (Konigsberg in Prussia, 30th September, 1784), 2002 Blackmask Online. http://www.blackmask.com.**
- **Ivan Klíma, Love and Garbage (Novel),Translated from the Czech by Ewald Osers, London, 1990.**
- **J., Schmidt, (editor), "What Is Enlightenment?":Texts and**

Interpretations, University of California Press, Berkeley, 1996.
- Jacques Dufresne, La mediocratie selon Alain Deneault :

http://agora.qc.ca/documents/la_mediocratie_selon_alain_deneault
- James M. Byrne, Religion and the Enlightenment : From Descartes to Kant, Westminster John Knox Press, 1997.
- Jean-Jacques Rousseau, A Discourse on Political Economy, Intern ational relations and security Network, Primary Resources International Affairs, ISN Eth Zurich, (WWW.isn.ethz.ch).
- John Scanlan, On Garbage , Reaktion books Ltd , London, 2005.
- Katerina Deligiorgi, Kant and the Culture of Enlightenment,(SUNY series in Philosophy George R. Lucas Jr., editor), State University of New York Press, New York, 2005.
- Maria Nemcova BanerJee, Terminal Paradox ,The Novels of Milan Kundera, For Ron: Grove Weidenfeld, New York, New York, 1990.
- Maurizio Passerin d'Entreves and Seyla Benhabib(editors), Habermas and the unfinished project of modernity: critical essays on The philosophical discourse of modernity, The MIT Press Cambridge, Massachusetts1997.
- Michael Losonsky, Enlightenment and Action From Descartes To Kant, Passionate

Thought, Cambridge University Press, 2001.
- Michael Inwood, A Heidegger Dictionary(The Blackwell Philosopher Dictionaries), Blackwell Oxford 1999.
- Milan Kundera, The Art of the Novel , Translated from the French by Linda Asher, Grove Press, Inc , New York 1988.
- Nancy Fraser and Axel Honneth, Redistribution or Recognition? :A Political-Philosophical Exchange, Translated by Joel Galb, James Ingram, and Christiane Wilke, VERSO: London· New York 2001.
- Nancy Fraser and Axel Honneth, Redistribution or Recognition?: A Political-Philosophical Exchange, Translated by Joel Galb, James Ingram, and Christiane Wilke ,Verso, London· New York, 2002.
- Nancy Fraser, Justice Interruptus, Critical Reflections on the "Postsocialist" Condition, Routeldge, New York, London, 1997.
- Noam Chomsky, Keeping the Rabble in Line, Interviews with David Barsamian, published by Noam Chomsky and David Barsamian, New York ,1994.
- Norma Bouchard, Eco and popular culture, In: Peter Bondanell (editor), New essays on Umberto Eco, Cambridge University Press, New York 2009.

- Paul Feyerabend, Against Method: Outline of an Anarchistic Theory of Knowledge, Verso, London 1993.
- Paul Virilio, Negative Horizon :An Essay in Dromoscopy, Translated by Michael Degener, Continuum, London- New York, 2005.
- Paul Virilio, Speed and Politics ,Translated by Marc Polizzotti, Semiotext(e) Foreign Agents Series, 2006.
- Pierre Bourdieu, Language and Symbolic Power, Edited and Introduced by John B. Thompson, Translated by Gino Raymond and Matthew Adamsom, Polity Press, Cambridge, 1991.
- Pierre Bourdieu, On Television, translated from the French by Priscilla Parkhurst Ferguson, The New Press New York 1996.
- Pierre Bourdieu, Political Interventions: Social science and political action, Texts selected and introduced by Franck Poupeau and Thierry Discepolo Translated by David Fernbach, Verso, London , New York, 2008.
- Roger Kimball, The Ambiguities of Milan Kundera, In: Milan Kundera , Edited and with an introduction by Harold Bloom, (Bloom's Modern Critical Views), Chelsea House Publishers, a subsidiary of Haights Cross Communications, 2003.
- Seyla Benhabib, Arendt's Eichmann in Jerusalem, In: Dana R. Villa(editor) The Cambridge Companion to Hannah Arendt

,Cambridge Companions Online © Cambridge University Press, 2006.
- Si Kahn, Creative Community Organizing ,A Guide for Robble –Rousers, Activits and Quiet Lovers of Justice, Demos: Berrett-Koehler Publishers, Inc. San Francisco a BK Currents book U.S. A, 2010.
- Terry Eagleton, Estrangement and Irony, In: Milan Kundera, Edited and with an introduction by Harold Bloom, (Bloom's Modern Critical Views) 2001.
- Thomas Hobbes, Leviathan or the Matter, Forme, & Power of a Common-wealth Ecclesiasticall and Civill. printed for Andrew Crooke, at the Green Dragon in St. Pauls Church-yard 1651(Prepared for the McMaster University Archive of the History of Economic Thought, by Rod Hay) Ontario- Canada 2000 ,P106.
- Umberto Eco, Apocalypse Postponed, Edited by Robert Lumley, Indiana University Press ,Bloomington and Indianapolis, British Film Institute, London, 1994.
- Wei Zhang, Heidegger, Rorty and The Eastern Thinkers, A Hermeneutics of Cross-Cultural Understanding, State University of New York Press 2006.
- Yvon Grenier, Milan Kundera on Politics and the Novel, In: History of Intellectual Culture, (http://www.ucalgary.ca/hic • ISSN 1492-7810 2006 • Vol. 6, No. 1) 2006.